ǥǿƺ ƭ Ǻ ƫǟ ȳǞΛ ɉ ǟ ǦɆ ǵ Ȁ Ȇ ƞ

â ƺφʂ ! ǟ ǼȞ è

الحفيد : كنت في السادسة من عمري، حين غابت أمي يومين، عادت بعدهما، ومعها امرأة عجوز شديدة الضعف والهزال. في البداية خفت منها، ولكن حين تمليت وجهها، وجدته مضيئاً وآسراً، لا تشبع العين من النظر إليه. قالت لي أمي.. هذه جدتك، وطلبت مني أن أقبّل يدها، فأمسكت تلك اليد المعروقة الباردة، وطبعت عليها قبلة سريعة. وكانت أمي تواصل كلامها قائلة.. هذا هو العزاء الذي تركه لي قبل أن يُستشهد. طبعاً كانت تقصدني، وتقصد أبي. وأذكر أن جدتي أصرّت أن يُمدَّ فراشها على الأرض. وخلال فترة لا أعرف كم دامت، تعودت أن أراها دائماً متمددة على ظهرها، ويداها معقودتان فوق بطنها. وكانت لا تكفُّ عن التمتمة، وقليلاً ما تأكل أو تتحدث. ورغم أن لدينا أقارب كثيرين، سواء في الشام أو في بيروت، فإن أحداً لم يزرنا طوال وجودها في بيتنا.

فيما بعد.. مع نمو إدراكي وفضولي، أيقنت أن في العائلة دُمَّلاً يتستر عليه الجميع. وأدركت على نحو غامض، أني لن أستقر في اسمي وهويتي إلا إذا كشفت الدمَّل وفقأته. بدأتَ البحث مع أمي. ماطلتْ كثيراً، وتهربت طويلاً. وفي النهاية.. حكت لي عن ذلك الصباح.

(١)

فصل الأرق والتطير

(تبدو ليلى، وهي صبية جميلة لم تتجاوز السادسة عشرة من عمرها، منهمكة في تنظيف صالون البيت. إنها تؤدي عملها بخفة ومرح. ليس للأمكنة كثافة واقعية. وسيكون على الشخصية، أن تضع قطع الأثاث، وهي تصفه، أو تستخدمه.)

ليلى : ذلك الصباح، كنت أنظف الصالون استعداداً للمناسبة، التي هيأناها لأبي. كنا نسكن في بناية حديثة بُنيت على الطراز الإفرنسي. الأبواب والنوافذ عالية، تجعل المرء يشعر أن الفضاء واسع، وأن الهواء وافر. وكان لدينا غرامفون، وعدد كبير من الأسطوانات. ذلك الصباح، كنت أنظف الصالون، وكان المرح يملأ أعطافي. وبعد قليل، أطلّت أمي وكأنها صبح جديد. كانت في أواخر الثلاثينات، ذات جمال آسر، وفتنة محيّرة. آه.. كم كنت متعلقة بها! وحين اقتربت مني، لاحظتُ أنها متعبة، وأن الأرق قد ترك بصمات زرقاء تحت أجفانها. في ذلك الصباح، بدأت أدرك أن هذه العلامات ليست عابرة، وأن أمي تخفي معاناة قاسية.

(وهي تعانق أمها) هذه ساعة القهوة المضبوطة، وغناء عبد الوهاب الشجي.

(تتجه ليلى نحو الفونوغراف، وتضع أسطوانة.)

سناء : **(بحدة)** دعيني من عبد الوهاب وغنائه.

ليلى : **(تتشيطين)** أماه.. من قدّ إيه كنا هنا؟

سناء : من قال إني أحب الغناء. لا أريد أن أسمع عبد الوهاب.

ليلى : أمي.. أراكِ متعبة. هل تشكين من شيء؟

سناء : لا.. حضّري القهوة فقط.

ليلى : **(وهي تمضي إلى المطبخ)** حاضر.

(تتوقف، وتستعيد النبرة السردية)

ليلى : **(هامسة)** لا أدري.. أعتقد أنها كانت متبوعة.

الحفيد : ما معنى متبوعة؟

ليلى : التابعة هي جنية سفيهة تسكنها، أو تصاحبها كالطيف أو الظل.

الحفيد : وكيف عرفت أنها متبوعة؟

ليلى : في تلك الفترة، بدأت ألاحظ طيف امرأة، أو ظلاً، يجالس أمي، وينهمك في الحديث معها. كان ذلك غريباً.. أحياناً كنت أرى الطيف واضحاً كامرأة حقيقية مليحة الوجه، ولها عينان وحشيتان ومكحولتان. ولكن.. ما إن أنعم النظر، أو أقترب حتى تغيب المرأة، وتتحوّل وهماً. كنت أخشى تلك الرؤية، وأتطيّر منها.

(تختفي ليلى)

الحفيد : في بحثي عن دمَّل العائلة، كنت أعلم أني سأتخبط كثيراً في متاهات الأوهام والأكاذيب. ولكن في مثل وضعنا، لم يكن هناك ممر آخر إلى الحقيقة. ولهذا سأتابع هذه الفصول، دون تمحيص كبير، ودون تركيز على حسن التتابع والتنسيق.

(٢)

فصل سناء والتابعة

(تمضي سناء بخطىً قلقة نحو النافذة، لكن قبل أن تصل إليها، تنفتل مبتعدة عنها. تتهاوى على إحدى الكنبات. تُخرج من صدرها حجاباً مثلث الشكل، تقبّله، وتضعه على جبينها مرات ثلاث.)

سناء : **(بضراعة.. هامسة)** اللهم لا تحبس رحمتك عني. يا رب.. وأنت العارف ما في السريرة، إحمني من شر نفسي، وطهّرني من الوسواس، الذي يكدر روحي. يا رب.. إن عبدتك في محنة ما بعدها محنة. فاحمني من مكائد الشيطان وتزاويقه. يا رب.. إني أفوض أمري لك.

(تدخل امرأة، تماثل سناء في الطول والقوام، ترتدي ثوباً نارياً. وجهها شديد البياض، تبرز فيه عينان، سطوتهما لا تقاوم. تربط شعر رأسها بمنديل حريري موشىّ بزهور ملونة وصغيرة. تقترب منها، وتجلس قربها.)

سناء : **(تبتعد عنها بإعياء وغضب)** ما الذي جاء بكِ؟

المرأة : ألهمني قلبي، أنك تتمنين حضوري.

سناء : لم أتمنَّ حضورك، ولا أريد أن تفسدي ابتهالاتي.

المرأة : **(لا مبالية، وفي صوتها بحة وخشونة)** هل تبتهلين إلى الله، أن يعذبك، ويجعل أيامك شقية؟

سناء : أبتهل إليه أن يحميني. إني امرأة متعبة، ولا أتحمل هذا الوجع.

المرأة : هذا وجع يختلف عن الوجع. إنه وجع ممتع، ولا يعرف

القلب كيف يميز فيه، أين الممتع وأين الموجع.

سناء : لا تبدأي في تنويمي. عزمت على أن أحسم أمري.

المرأة : وهل أطلب إلا أن تحسمي أمرَكِ.

(تظهر ليلى، وهي تحمل صينية عليها ركوة القهوة والفنجان. تتلكأ في مشيتها، وهي تحملق في الكنبة، حيث تجلس أمها)

سناء : حاذري.. إن ابنتي قادمة.

(تتوارى المرأة)

ليلى : **(مرتبكة)** هذا غريب.. كأني رأيتُ امرأة، أو هيئة غريبة إلى جوارِكِ!

سناء : في هذا الضوء الباهر قد يعشى البصر، وتتراءى للعين أطياف وصور.

ليلى : ربما..

(تتطلع حولها بفضول واستغراب، ثم تضع الصينية على الطربيزة، وتحاول أن تصب القهوة)

سناء : دعي عنك يا ليلى. سأصبها حين ترقد.

ليلى : **(ما زالت تتلفت حولها)** ألا تريدين شيئاً آخر يا أماه؟

سناء : مع رائحة قهوتك الطيبة، تحسّن مزاجي. ضعي لنا كوانة عبد الوهاب، حتى تكتمل بهجة هذا الصباح والقهوة بالغناء.

ليلى : هل تفضلين أغنية معينة؟

المرأة : «من قدّ إيه كنا هنا».

(تصب سناء القهوة، بينما تضع ليلى الأسطوانة على الغرامفون، وتخرج. ينبعث صوت عبد الوهاب صادحاً بالغناء. بعد قليل، تظهر المرأة)

المرأة : إنه ينتظر.

سناء : اخرسي، ولا تذكريه. هذا جنون لن أستسلم له.

المرأة : بدأ الجنون منذ القديم يا سناء، ولن تستطيعي أن تفرّي منه إلا

بالموت. **(يغدو صوتها حالماً ومؤثراً)** كنتِ في الرابعة عشرة من عمركِ، وكنتِ تجلسين مع عمتك في عربة الحنطور، التي تختبئ في زقاق قريب من حي «اليهود». كان الطقس بارداً، والمطر يهطل مدراراً. وكان أخوكِ البكر يقف على الرصيف، وهو يشد عباءته على جسده العملاق، غير عابئ بالريح أو المطر. انتظرتِ.. وانتظرتِ.. وحين بدأتِ تيأسين، انفرج باب، وأطلت منه تلك الصبية، التي لا تحمل إلا صرَّة ثياب صغيرة.

سناء : أينبغي أن تنبشي تلك الذكرى بالذات! **(يرقُّ صوتها، ويكسو نظرتها لمعان وحنين)** حين رأيتُ تلك الصبية، التي تتحدى إرادة أبيها على جبروته وغناه، وتجري كعصفور مبلل وراء حبها وحريتها، شعرتُ أني ألتهب بالحسد والشوق.

المرأة : كانت فاتنة، ويزيدها الشحوب والخوف فتنة. ووثب الأخ نحوها. وشعرتِ أن قلبك يسقط إلى أسفل حوضكِ. وهزَّك شعور ككيِّ النار، لن يُمحى أثره ما حييتِ. وحين انطلقتم، كان كل ما فيك يجيش، ولم تكوني تميزين تلك المشاعر المتدافعة كزخات المطر. هي الحسد والشوق، هي الرغبة والحمَّى، هي الحلم وحكَّة الرغبة. هل عرفت ما أصابك يومها!

سناء : **(منكسرة)** نعم.. عرفت. وُلد في داخلي حلم لن ينطفئ ما حييت. وحين أويت إلى فراشي، لم أنم، ولم تجفَّ دموعي.

المرأة : أرأيتِ.! في تلك الليلة، سكنك الحلم، ولن تعرفي السكينة والغبطة حتى يتحقق.

سناء : ها أنت توهنين عزمي.. يا رب.. إني رخوة وضعيفة. كنت أحسب أني تجاوزت زمن المخاطر.

المرأة : لا يتجاوز المرء خفقان الحب إلا بالموت.

سناء : أخشى أن أكون مرصودة، أو أن ساحرة شريرة عملت لي عملاً.

المرأة : دعي الرصد والسحر جانباً. أنا أعرف، وأنت تعرفين، أنه كانت في الصدر مَوقِدةٌ مهيأة دائماً للاشتعال.

سناء : ولفحتني النار كحمم التنور. هذه المشاعر اللاهبة.. هذا الشوق.. هذه اللهفة.. أشعر أني على حافة الجنون.

المرأة : لن تشفي من الجنون، إلا إذا أطعتِ قدرك.

سناء : إلامَ تدفعينني؟ كيف يمكن، في مثل وضعي وسني، أن أطيع هذا القدر المخيف؟

المرأة : أنتِ تعرفين، أن جمالكَ هو في أوج ازدهاره ونضجه. حين ينظر إليكِ، ينخطف بصره، وتتحول قسماته نداءً مبحوحاً وضارعاً. لا.. لا.. في السابعة والثلاثين لا تتحدث المرأة، التي حباها الله فتنة وجمالاً، عن السنّ وفوات الأوان.

سناء : ووضعي.! إني متزوجة، ولديَّ شابان وصبيتان، إحداهما مخطوبة. لا.. لا.. هذا جنون.. مجرد أن يراودني التفكير، هو جنون يستحق العقاب.

المرأة : فعلاً، لك زوج وأبناء. ولكن من يحتاجك! الأبناء اكتملت أجنحتهم، وطاروا. والزوج لا يلمس وجودكَ إلا وقت شهوته أو حاجته.

سناء : لا.. لا.. مهما كان، فهذه عائلتي، وهذا نصيبي. **(منادية، وكأنها تستغيث)** ليلى.. ليلى..

المرأة : إنه ينتظر.

سناء : لا يعنيني ماذا يفعل. أرجوكِ.. دعيني الآن.

المرأة : كما تشائين. ولا تنسي أني جاهزة دائماً، عندما تتمنين حضوري.

(تتوارى المرأة مختفية، ثم تظهر ليلى بعد قليل.)

ليلى : هل تريدين شيئاً يا أماه؟

سناء : تعالي قربي. **(تجلس ليلى قرب أمها، التي تطوقها بذراعها، تمسّد على شعرها)** أتعلمين يا ليلى.. أحياناً أحس أنك أقرب أولادي إلى قلبي. ربما لأنكِ آخر العنقود، أو لأن الآخرين يبتعدون عني يوماً بعد يوم.

ليلى : لا أحد يبتعد يا أمي. هي ظروف العمل والدراسة. ولكن الجميع يحملون لك حباً كالعبادة.

سناء : قولي يا ابنتي.. أما زلت تشعرين بالحاجة إلي؟

ليلى : ومن يستغني عن أمه! كلنا بحاجة إليكِ يا أماه.

سناء : أسألكِ أنت يا ليلى.

ليلى : إني أكثرهم حاجة إليكِ.

سناء : **(وهي تضمها بحنان، وتقبلها)** يا حبيبتي..

ليلى : **(هامسة)** ألم يخبرك أحد عما سيحدث اليوم؟

سناء : **(متوجسة)** وماذا سيحدث اليوم؟

ليلى : قررنا أن يكون اليوم عيد أبي.

سناء : ماذا تنوون أن تفعلوا؟

ليلى : لا.. لن أقول أكثر من ذلك، وإلا فسدت المفاجأة.

سناء : وفقكم الله، وطيب حظكم في هذه الدنيا.

ليلى : أماه.. هل أستطيع أن أطرح عليك سؤالاً؟

سناء : طبعاً.. يا ابنتي.

ليلى : في الفترة الأخيرة، بدأت ألاحظ أنك دائماً متعبة ومهمومة. ما الذي يقلقك يا أماه؟

سناء : لا شيء.. **(وهي تضم ليلى إلى صدرها)** لا شيء يا ليلى. **(وتختفي الإضاءة)**

الحفيد : بعد ظهر ذلك اليوم، كان جدي ينعم بقيلولته المعتادة، بينما انهمك الأبناء الأربعة في تحضير الاحتفال المفاجأة. كان الدركي عدنان، وهو الابن البكر، ومعه أخوه سرحان، الطالب في الجامعة الأمريكية، يمدّان حبال الزينة، بين السقف وجدران الصالون. وكانت سلمى الفتاة الكبرى، والتي تفضل أن ينادوها «ساما» ، ترتب بارفاناً أنيقاً في زاوية الصالون الخلفية. أما ليلى، فكانت تزيح الكنبات نحو الجدران، كي يتحول الصالون إلى ما يشبه حلبة رقص، أو قاعة احتفال.. وبعيداً قرب النافذة، كانت الأم تجلس منزوية، وشاردة البصر.

(٢)

فصل التمدن والرقي

(الصالون مزين، ويبدو كقاعة احتفالات. في الركن الخلفي، وُضع بارافان أنيق. قرب الباب المفضي إلى المطبخ، وُضعت طاولة مرتبة، عليها صحون وكؤوس. تنبعث من الغرامفون موسيقى غربية ناعمة. يقف الأبناء الأربعة، وقد تجمّلوا، وارتدوا ثياب المناسبات. يُطل الأب عبد القادر الطحاوي مرتدياً ثيابه التقليدية، المؤلفة من قنباز حريري وميتان من لون القنباز، وفوقهما سترة وعلى الرأس طربوش من الجوخ الغامق الحمرة.)

عدنان : صح النوم يا أبي.

سرحان : هنيئاً يا أبي.

عبد القادر : **(وهو ينظر إلى الصالون بدهشة)** ما هذا يا أولاد؟ ماذا يحدث؟

سلمى : بابا.. اليوم عيدك. وما تراه هو احتفال بسيط أعددناه لك.

عبد القادر : أي عيد؟ وأي احتفال؟

عدنان : كنت يا أبي.. كنت دائماً يا أبي..

(يتلعثم، فيلكزه أخوه سرحان)

سرحان : **(بلهجة خطابية)** بفطرتك السليمة، ورجاحة عقلك، سبقت يا أبي أبناء جيلك، في تمييز ومعرفة منافع التمدن. أقبلت على مظاهر الحياة الجديدة، دون توجس أو خوف. وغيّرت البيت، والأثاث، والكثير من العادات.

سلمى : وسجلتنا في مدارس أجنبية، كي تضمن لنا التربية العصرية،

والعلوم الراقية.

سرحان : إن عقلك المستنير، جعل من عائلتنا الصغيرة مثالاً للرقي والمدنية.

سلمى : ولكن في غمرة انشغالك بنا، أهملت حظك، ونسيت أن تغير قديمك.

عبد القادر : أوضحوا لي بكلام مفهوم، ماذا تقصدون؟

سلمى : حان الوقت كي نخلع لباس الأزمان المظلمة، ونرتدي لباس الأيام المضيئة.

سرحان : كل شيء جاهز. وسيبدأ الاحتفال.

(يحيط الأبناء بأبيهم، ويسحبونه برفق نحو البارافان.)

عبد القادر : اسمعوا يا أولاد..

سلمى : الاحتفال مقرر، والاعتراضات مرفوضة.

ليلى : هذا عيد وزينة وعرس.

عبد القادر : يا أولاد.. كان ينبغي أن تخبروني..

سلمى : خشينا أن تجادل أو تتردد.

ليلى : لا تكسفنا يا أبي.

عدنان : سأعطي الإشارة.

الأبناء : (معاً) هيا!

عدنان : افتح يا سمسم!

(ينفرج البارافان إلى قطعتين، •يخرج الخياط، يتبعه الصبيان، اللذان يحملان صناديق الملابس.)

سرحان : هذا سيد الخياطين في بيروت. خياط الكبار من أغنياء وسياسيين وتجار.

عبد القادر : ولكن..

سلمى : بابا.. أنت تعرف أن هذه الثياب، لم تعد تليق برجل متمدن مثلك.

(ينحني الخياط باحترام طقسي، ثم يبدأ بفتح العلب وإخراج الملابس. ليلى تبدل الأسطوانة، فتصدح موسيقا إيقاعية مقطعة إلى فواصل، وكأنها صُمِّمت كي تضبط حركات لاعبي السيرك. يحيط سرحان وعدنان بالأب، الذي يسيطر عليه خدر المستسلم. ينزعان السترة عن أبيهما.)

سلمى : **(تتناول السترة، وترميها في الزاوية)** ورمينا سترة العصملّي.

سرحان : غير مأسوف على الزمن المولّي.

(ينزع عدنان وسرحان المتيان عن أبيهما)

سلمى : **(تتناول المتيان، وترميه)** وهذا متيان التأخر والتخلف.

(يدفع الصبيّان قطعة البارافان أمام الأب والابنين، بحيث يُخفي معظم قاماتهم. ينزع عدنان وسرحان القنباز)

سلمى : **(تتناول القنباز، ثم ترميه)** ورمينا قنباز البشاعة والتنبلة.

سرحان : ومن يأسف على البشاعة والتنبلة..

عبد القادر : لا.. لا.. سأخلعها بنفسي.

سلمى : جاهزون!

سرحان : نعم..

سلمى : هيا أيها الخياط.. جدّد أبانا، واجعل المفاجأة تبهر أبصارنا.

الخياط : حاضر.

(يضم قطعتي البارافان، يختفي مع الصبيين وراءهما. تذهب ليلى، وتجدّد وضع الأسطوانة نفسها.)

عدنان : أماه.. لماذا لا تقتربين منا؟

سناء : لا تهتموا بي.. إني مرتاحة.

عدنان : **(يتجه إليها، ويجرها من يدها)** تعالي يا أمي.. يجب أن تشاركينا الاحتفال.

سناء : ماذا تريدني أن أفعل؟

سلمى : **(وهي تلتفت إلى الوراء)** ماما.. لاتناكدينا. تعالي واجلسي قربنا.

(تنهض سناء مطاوعة سلمى، وتجلس على كنبة قريبة من الحلبة. من خلف البارافان، يبدو عبد القادر، مرتدياً القميص، والخياط منهمك في تزريره)

سرحان : لبس القميص والبنطلون..

عدنان : وعقدنا ربطة العنق.

سلمى : تصوري يا أماه.. سنرى أبي، كالرجال العصريين، يرتدي بذلة، ويضع ربطة عنق.

سرحان : وارتدينا الصدرية، وفوقها جاكيت يلبسه كالقالب.

(يباعد الخياط شقي البارافان، فيظهر عبد القادر بحلته الجديدة، متغيراً وجديداً. تتصاعد آهات الإعجاب.)

الخياط والصبيان: مبروك.. مبروك..

الأبناء : ألف مبروك.. ألف مبروك..

سلمى : **(وهي تقترب منه)** بابا.. الآن أنت الكمال ذاته.

ليلى : ما أجملك يا أبي.!

(يدورون حوله، وهم يمسّدون البذلة، أو ينزعون خيطاً عالقاً أو نثرة قماش)

سرحان : أين المرآة؟

(يُهرع الخياط، فيتناول مرآة تُطوى بمفصلات، يفتحها)

سلمى : أغمض عينيك! بابا.. أرجوك أغمض عينيك.

عبد القادر : أغمضت عيني.

الخياط : **(وهو ينصب المرآة أمام الأب)** وهاهي المرآة.

سلمى : والآن.. افتح عينيك.

عبد القادر : **(وهو يتملى هيئته، مستغرباً)** إني لا أكاد أتعرّف على نفسي. أتظنون أن هذا لائق يا أولاد؟

سرحان : انتظر حتى يعتاد بصرك عليه.

ليلى : إنه لائق وجميل جداً يا أبي.

سلمى : والآن.. حان وقت الاحتفال والمرح. ضع لنا يا سرحان

رقصة تانغو. وتعالي يا ليلى، كي تُحضِّر العصير والحلوى.

(فجأة تنهض سناء ممتقعة الوجه، تضع يدها على فمها، وتجري خارج الصالون. تلحظها ليلى، فتلحق بها.)

عبد القادر : **(ما زال يتملّى نفسه في المرآة)** ماذا أصاب أمك؟

عدنان : لا أدري.

(تصدح موسيقى التانغو. تعود سلمى حاملة قالباً من الكاتو، تضعه على الطاولة)

عبد القادر : **(وكأنه ينتبه فجأة إلى رأسه)** أين الطربوش يا أولاد؟

سلمى : **(صائحة)** أي طربوش! ألم تُحضر قبعة أيها الخياط؟

الخياط : نعم.. إن القبعة جاهزة.

عبد القادر : لا.. اسمعوا.. مهما قلتم أو فعلتم، فلن أبدِّل الطربوش.

سلمى : مع هذا اللباس، القبعة أليق.

عبد القادر : ولكن مع حسبي وديني، الطربوش أنسب.

سرحان : **(غامزاً سلمى)** ليكن.. ليكن.. هناك كثيرون يلبسون الطربوش فوق الملابس الإفرنجية.

سلمى : سيكون أحلى، لو تغير بالكليّة.

عدنان : **(هامساً)** اتركي هذا التفصيل، ولا تفسدي الاحتفال. **(تعود ليلى)** ما حال أمي؟

ليلى : لا شيء.. إنها متعبة قليلاً.

عبد القادر : لا أراها هذه الأيام إلا متعبة!

سلمى : هاتي العصير يا ليلى. وأنا سأقطِّع الكاتو.

(يضع عبد القادر الطربوش على رأسه. على هرج الموسيقا، وجو الاحتفال..

تختفي الإضاءة.)

(٤)

فصل المفاخرة بين الطربوش والقبعة

(تظهر فرقة الأراجوز في الساحة. وهي مؤلفة من الأراجوز والصبية والشاب وولد بارع في العزف على الهارمونيكا. تفرش عدتها المؤلفة من سلم مزدوج الدرجات، وبعض الأمتعة والإكسسوارات. يُخرج الأراجوز من كيس ثلاثة طرابيش. يجرب الصغير منها، على رأس الصغير، ويضع الثاني على رأس الشاب، ثم يضع الثالث على رأسه. يقف الثلاثة الواحد إلى جوار الآخر.)

الأراجوز : كيف نبدو؟

الصبية : ما هذه المسخرة؟

الأراجوز : هذه طرابيش من أجل الرواية التي نحضرها.

الصبية : ولماذا الطرابيش؟

الأراجوز : لأن أبطال الرواية وقورون. والناس الوقورون لا يرتدون إلا الطرابيش.

الصبية : دعني من الوقار والمتوقّرين. الطراطير أليق من هذه الطرابيش.

الأراجوز : ألم تنتهِ من الطراطير! لم نعد فرقة للقفشات الصغيرة، والنمر المستهلكة.

الصبية : إذن.. سترتدون القبعات بدلاً من الطرابيش.

الأراجوز : (باستنكار) قبعات..

الصبية : نعم.. قبعات.

الأراجوز : القبعة مرقعة..

الصبية : القبعة علوٌّ ورفعة..

الأراجوز : القبعة مرقعة..

(يدور الأراجوز والصبية، واحدهما وراء الآخر وكأنهما في غمار مطاردة. يتوقفان فجأة. يتناول الأراجوز طربوشاً ضخماً، يرفعه فوق عصا. وترفع الصبية قبعة ضخمة جداً فوق عصا أخرى. يبدأان جدلاً، يتناوشان خلاله بفظاظة وعنف. وينتهي الأمر بهما إلى الشجار)

الأراجوز : **(وهو يدور في الساحة)** وتفرَّج يا سلام..
على الأمة ذات الهمة
أرادت أن تستعجل النهضة، وأن تحقق التقدم في قفزة
فأنفقت عقداً من الزمان، في السجال بين الطربوش والقبعة.
(بصوت خطابي واحتفالي) الطربوش رمز الدين.

الصبية : **(تجاريه في الصوت الاحتفالي)** والقبعة رمز التمدين.
(ينضم الشاب إلى الصبية، فيما يعزف الولد إيقاعات ساخرة على الهارمونيكا.)

الأراجوز : الطربوش علامة التدين.

الصبية : والقبعة علامة التمدّن.

الأراجوز : أتمسّك بالطربوش، لأنه التعبير الوافي عن ديني وقوميتي.

الصبية : لم تذكر الكتب أن الرسول وصحابته، لبسوه أو أوصوا به.

الأراجوز : ولكن أباءنا، وأجدادنا، وأجيالاً من السلف الصالح، لبسوه، فصار ميِّزة وهوية.

الصبية : ما الطربوش إلا لباس تركي يقمع الرأس قمعاً، وفي الصيف يحجب التفكير تحت ضباب من البخر واللهب.

الأراجوز : ما القبعة على رأس الشرقي، إلا فكرة هزمت فكرة، ورذيلة قالت للفضيلة.. أنا جئت فاذهبي.

الصبية : ما الطربوش إلا جمود ومرض.

الأراجوز : إن الأفكار الإسلامية، لا يصونها إلا الطربوش. وهي تحت

القبعة تفسد وتبوخ.

الصبية : القبعة حرية وصحة عقلية.

الأراجوز : هي تشبّه بالكفار، ومن تشبّه بالكفار فهو كافر. القبعة كفر وفجور.

الصبية : والطربوش مسخرة وجمود.

الأراجوز : **(وهما يتماسكان)** أتنسبين ديني وهويتي إلى المسخرة!

الصبية : وأنت أترمينا بالكفر والزندقة!

الأراجوز : الطربوش.. هو الأصل.

الصبية : والقبعة.. هي العقل.

الأراجوز : الطربوش..

الصبية : القبعة..

(يتماسكان، ويتبادلان الصفعات واللكمات، فيما يحاول الشاب الفصل بينهما.
تختفي الإضاءة)

الحفيد : أمي.. ماذا أصاب جدتي يومذاك؟
ليلى : تقيأتْ.. وتقيأتْ.. كادت تُخرج أمعاءها من بطنها.
الحفيد : هل كانت مريضة؟
ليلى : قالت.. إنه مجرد برد، وأنها تحسنت بعد أن أفرغت معدتها. ثم أمرتني أن أتركها، وأعود إلى الاحتفال.
الحفيد : أخبريني.. كيف تزوج جدي وجدتي؟
ليلى : كان جدي وأخوالي في دمشق يتاجرون بالحبوب والطحين، وكان أبي أيضاً، واحداً من أكبر تجار الطحين في بيروت. ونشأت بين الطرفين علاقات عمل ومصلحة، تحولت مع الأيام إلى صحبة. وكانت أمي صبية يتغنى الناس بحلاوتها. كان عمرها خمسة عشر عاماً، حين اتفق أبي وجدي على توثيق التجارة والمودة بينهما بالمصاهرة والزواج.. وأقيم عرسان واحد في الشام، والآخر في بيروت. وتم الزواج بين أبي وأمي.
الحفيد : هل كان بينهما حب؟
ليلى : في تلك الأيام، كان الحب معيباً. ومع هذا أعتقد أن أبي كان يحب أمي، لكنه لم يكن يعرف، أو لم يشأ، أن يعبر عن حبه. من الصعب أن يفهم المرء سلوكه. كان شديد الرحابة معنا نحن أولاده، ولكنه كان شديد القسوة والغيرة على أمي.
الحفيد : إذن.. ما الذي يجعلك تعتقدين أنه كان يحبها؟
ليلى : لا أدري.. كنت ألمح خلف قسوته نوعاً من الهوى المشبوب.
الحفيد : ماذا تعلمين عن علاقتهما في الفراش؟
ليلى : (غاضبة) يا عيب الشوم! ألا تستحي أن تسأل أمك مثل هذا السؤال!
الحفيد : في مثل هذه الزيجات، الفراش هو الأرضية، التي يتقرر فوقها

شكل العلاقة، ومصير الزواج ذاته.

ليلى : **(وهي تخرج)** حقاً إنكم جيل لا يعرف الشرف أو الحياء.

الحفيد : وكانت خالتي سلمى، التي بالغت في تمدُّنها، تكره التزمُّت، وتغالي في الصراحة.

(تظهر سلمى، وهي تقهقه)

سلمى : نعم.. تلصَّصت عليهما، واكتشفت كيف كانت تدور الأمور بينهما. أوه.. شيء بهيمي ومبتذل. كان نوعاً من.. لا توجد كلمات مناسبة.. سأصف لك ما رأيت، ولك أن تحكم بنفسك.

(٥)

فصل الفراش الزوجي

(الإضاءة خافتة لا تكاد تبدد العتمة. وهي تضفي على الحركات طابعاً شبحياً. فراش عريض ووثير في غرفة الأب والأم. سناء تنام على جنبها. يأتي عبد القادر، ويتمدد وراءها. يمسكها من كتفها، ويحاول أن يقلبها على ظهرها. تنقلب سناء، دون مقاومة، متمددة على ظهرها.)

عبد القادر : كم مرة قلت لكِ.. لا تسرعي في الاستجابة!

سناء : (بصوت مخنوق) إني متعبة..

عبد القادر : (بغضب) ما هذه القصة! كلما اقتربت منك، يداهمك التعب. أتعرفين أن هذا نشوز، وأن الناشزات يُضربن في المضاجع؟

سناء : أرجوك أن تخفض صوتك.

عبد القادر : إذن.. لبّي رغبتي، وافعلي ما يرضيني.

سناء : سأفعل.. سأفعل. ولكن لا تغضب، ولا تجعل الأولاد يكشفون أمرنا.

عبد القادر : طيب.. عودي واستديري.

(تستدير سناء، لتنام على جنبها كما كانت في بداية المشهد. يمسك عبد القادر كتفها بقبضته، ويحاول أن يقلبها على ظهرها. تقاومه)

عبد النادر : (بشبق) نعم.. نعم.. قاومي.. وارفضي..

سناء : (باشمئزاز حقيقي) لا.. لا أريد..

عبد القادر : (وهو يقلبها بعنف) أحقاً لا تريدين؟

سناء : دعني.. (وهي تقاومه) ابتعد عني..
عبد القادر : (وهو يثبت يديها، ويزحف فوقها) أنتِ لي.. ولن أبتعد إلا فيكِ.
سناء : إنك تؤلمني.
عبد القادر : وسأزيدكِ ألماً إن لم أسمعكِ تتوسّلين.
سناء : (بألم) إنك توجعني فعلاً.
عبد القادر : توسلي إذن..
سناء : أرجوك أن تكون لطيفاً.
عبد القادر : (وهو يمزق سروالها) لا تتفق اللذة مع اللطف.
سناء : آخ..
عبد القادر : الآن.. بدِّلي التمنع بالدلال.
سناء : (الكلام الذي تقوله هو جزء من طقس محفوظ، ولكن من الواضح أنها لا تمثل، وأنها تعنيه فعلاً) إني أكرهك..
عبد القادر : نعم.. نعم.. اكرهيني.
سناء : إنك جلف.. إنك وحش.. إنك رهيب..
عبد القادر : نعم.. إني جلف، وإني وحش، وإني رهيب.
سناء : خاصمتك..
عبد القادر : (يخور، بصوت لاهث ومتقطع) وأنا أصالحك.. أصالحك.. أصالحك.
(تختفي الإضاءة)

الحفيد : وكانت تلك الأيام مخمورة، تترنح بالإباحة والشهوة. جاء السيد دي مارتل، مفوضاً سامياً. كان محنكاً بلا وازع، وماجناً بلا رادع. خطف عقول القوم، فخلعوا ما بقي من التقاليد والقيم القديمة. وانهمكوا على دين سلطانهم، في البحث عن المباهج والملذات. كانت الأيام مخمورة، تترنح بالإباحة المفاجئة، والرغبات الذاهلة.

(٦)

فصل التلقيف والتدريب

(غرفة تختنق بالدخان، أرضها مغطاة بحصير وحشايا ومخدات مفروشة على الأرض، وموزعة قرب الجدارن. عصمت الذي يلقب بالبوري شاب في حوالي الثلاثين من العمر، قاسي الملامح، وفي خده أثر جرح غائر، يزيد تلك الملامح صرامة. تجلس إلى جواره ومستندة على صدره سونيا، وهي شقراء وقصيرة القامة، لكنها حلوة الروح وجذابة. في الزاوية المجاورة، يجلس سرحان، الذي تبدو عليه مسحة من التهيب والارتباك. أمامهم طبق عليه بعض صحون المازة، وأقداح من العرق.)

البوري : ألا تعجبك سونيا؟ ما لَك.! إملأ عينيكَ منها، ولا تخجل.

سرحان : **(بصوت متردد)** ومن لا يعجبه الجمال!

البوري : أترين.. هذه ميزة المتعلمين. إنهم دائماً يجدون أجوبة لطيفة. ألم تلاحظ أنها تشبه امرأة، لها صيت يطنُّ في كل المدينة.. أمعنْ النظر، وتذكّر..

سونيا : لا تبالغ يا بوري..

البوري : يشهد الله إني لا أبالغ.. وأحياناً أرى أنك أجمل منها. ألم تحزر بعد؟

سرحان : لا أظن.

البوري : إنها تشبه الموسكوفية، التي يتفانى في عشقها مفوضنا السامي، السيد دي مارتل.

سرحان : تلك المرأة، التي لها نصيب من كل تجارة أو وساطة! سمعت

عنها ولم أرها.

البوري : غريب.. إن بيروت كلها تعرفها، لأن المفوض السامي يحب أن تتبختر إلى جواره، غير عابئ بزوجته، أو بكلام الناس. وعلى كل لم يفتْكَ شيء. **(وهو يضم سونيا)** فهذه الشيطانة تكاد تكون أختها التوأم.

سونيا : وأين نحن منها! هي تلعب بالملايين، ونحن نخشخش الفرنكات.

البوري : سيأتي حظكِ يا سونيا.. صدقيني أنه سيأتي. انظري.. إن البلد يفور. يشهد الله إني أحب هذا المندوب السامي.. لقد أبهجنا، ونفخ فينا روحاً جديدة. منذ جاء، خلع الناس الحياء، وتفتحوا للدنيا ومسراتها. أحياناً أحسُّ أن بيروت تتغير، وتتجدد كل لحظة. حين يتمشى المرء في ساحة البرج أو على الكورنيش، يشعر أن الهواء المحمَّل بالعطر والشهوة، يسري في مجاري الصدر حراً ومسكراً. هواء جاء من بلاد بعيدة. يملأ النفس توقاً إلى نشوة غريبة. نعم.. إن البلد تفور يا سونيا. ولو عرفتِ كيف تهزّين خصرك، لجاءتك الفرص متزاحمة.

سونيا : لكل واحد نصيبه في هذه الدنيا.. وأنا راضية. يكفي أن يحميني رجل شهم وكريم مثلك.

البوري : أهذا كلام من القلب؟

سونيا : **(وهي تقبل ذقنه)** وهل تعوّدت مني الكذب!

البوري : يشهد الله إنك تجعلينني أفرط. وسأقول لك مختصراً ومفيداً، لن يصيبك الأذى ما دمت حياً. **(يرفع كأسه)** كلامك يستحق نخباً يا سونيا. يالله.. كعب أيض **(يرفع الثلاثة كؤوسهم، ويفرغونها في أجوافهم)** عظيم.. والآن.. ما رأيكَ ببورية؟

(يخرج البوري من جيبه عدة التدخين، فيما تصب سونيا العرق في الكؤوس، وترايشه بالماء.)

سرحان : قلت لكَ لم أدخنه من قبل.

البوري : يا صاحبي.. في كل شيء هناك مرة أولى. واجتماعنا اليوم سيكون فيه مرة أولى لأشياء كثيرة. اسمع.. يشهد الله إنك دخلت قلبي، منذ التقينا ببار الزيتونة. ولكن.. لا مؤاخذة. إني متحير في أمرك قليلاً. أخبرتني أنك طالب في الجامعة، وأن أمورك ميسورة، فما الذي يدفعك إلى دروبنا الوعرة؟

سرحان : عافت نفسي الدراسة، والمعارف الذهنية. ما يُلهب أشواقي، هو الحياة الحقيقية. أريد أن أغوص في بحرها. أن أعرف أسرارها، وأجد مكاني فيها.

البوري : **(وهو يناوله سيجارة حشيش، بعد أن يشعلها له)** يشهد الله إنك تقول كلاماً يعبّئ المخ. وأنا أيضاً أجبرتني الظروف على قطع دراستي، وتلبية نداء الحياة. لست نادماً، فالحياة هي أيضاً مدرسة غنية. لا.. لا تسحب بشدة. اسحب على مهل، وتذوقها ببطء، وانفخها مرتاحاً. إن الحشيش يكره النزق والعصبية. وكلما استرخيت.. كلما كشف لك ألواناً من سحره وغرائبه.

سرحان : أشعر دواراً في رأسي.

البوري : هذا طبيعي. لا تأتي النشوة إلا بعد المكابدة. كاسك.. **(يتبادلون دق الكؤوس، ويمزمزون شرابهم على مهل)** هل تعرف يا صاحبي أن الدرب الذي تختاره، فيه مهالك وصعوبات؟

سونيا : لا ترعب الشاب يا بوري.

البوري : لا أرعبه. ولكن ينبغي أن يكون كل شيء على بلاطة منذ البداية.

سرحان : **(بدأ لسانه يتلجلج قليلاً)** شيء طيب، أن نبدأ خطانا على بساط من الصراحة. أحب أن تعرف عني هذا الجانب.. أنا أعتقد أن الحياة في أصلها مجازفة. والأخطار لا تخيفني، بل تغريني.

البوري : هذا يعني أنك مستعد لتنفيذ كل ما يُطلب منك.

سرحان : أنفّذ ما أقدر عليه.

البوري : يشهد الله هذه الإجابات تليق بالرجال. أخشى أني لم أحسن تقديرك.

سرحان : **(عيناه زائغتان، والعرق يغطي وجهه، الذي يتفكك)** ستأتي الأيام، وستكتشف أنك تعرفت على رجل..

(لا يسيطر على حالته، فيضع يده على فمه، وينهض مسرعاً خارج الغرفة)

سونيا : أسرفت عليه..

البوري : إنه لقطة، ولكنه يحتاج إلى تلقين وتدريب. لن يستطيع أن يعمل في هذا الميدان، إلا إذا دعكناه، وعلمناه فنونه وخفاياه. انهضي الآن، واعتني به. لا شك أن فنونك ستشفي دواره وأوجاعه.

(تضربه بدلال، وتقفز ناهضة برشاقة..
تختفي الإضاءة)

الحفيد : لا نستطيع أن نحدد متى قررت الخالة سلمى، أن تتكلم بالفرنسية فقط، وألا تستعمل العربية إلا مع الخدم وفي أدنى الحدود. ومرة سألتها.. هل كنت تحبين زوجك.

سلمى : كان شاباً متمدناً وميسوراً، وكانت ليونته، والوسط الذي يعيش فيه، يلائمان تماماً ما كنت أصبو إليه.

(٧)

فصل الارتباك والحب

(غرفة في بيت الخياطة نورا. حبيب، وهو رجل وسيم في الخامسة والأربعين من عمره، يذرع الغرفة بهدوء رواقي لطيف. تدخل سناء، مرتبكة ومتكسرة النظرة. يقف الواحد منهما تجاه الآخر، وتمتد بينهما فترة صمت طويلة ومتوترة.)

حبيب : هل ترتعشين؟ **(فترة صمت)** أنا أيضاً، أحسُّ رعشة في قلبي وأحشائي. ما عدت أعرف أيهما أوجع.. ألمُ انتظارك أم فرح حضورك!

سناء : هل آلمك الانتظار؟

حبيب : لا.. لا يحق لي أن أشكو. رتبت حياتي على الانتظار. لم يعد لدي ما أفعله، إلا أن أنتظرك. لماذا لا تجلسين؟

سناء : **(وهي تجلس)** إن الخوف يرهقني، ولم أعد أعرف نفسي. قل لي ماذا تريد مني؟

حبيب : تخيلي رجلاً يصاحبه السأم مثل ظله، ويجرُّ كالمرض الاصفر شحوب الرغبة والأمل في داخله. وفيما هو يتداعى نحو مغيبه، تباغته رؤيا تصعق خموله، وتجدد فيه الحياة والرغبة. كل هذا لغو.. لن أستطيع أبداً أن أشرح مشاعري نحوكِ. وحياتي لم تعد شيئاً إلا هذا النداء الموجوع، الذي ينتظر بصبر لا يكلُّ ردَّكِ وحضوركِ.

سناء : ارفق بي! أنا لم أحب من قبل. وحين أصغي إليك، أشعر أني أدوخ، ويختلط كل شيء في داخلي.

حبيب : إنكِ تقطِّرين الكلام مدهشاً ومسكراً. أحقاً لم تعرفي الحب من قبل؟

سناء : كنت دائماً أنتظر شيئاً ما. أشعر فجوة في أحشائي، أو رقَّة في قلبي. وكنت أشرد حالمة وحزينة. وحين كنت أراقب في دارنا بالشام زوجاً من الحمام، وهما يتبادلان الحب والحنان، ويمضيان أوقاتاً مديدة في تبادل القبلات والمداعبات، كنت أحس أن أشواقي تكاد تخنقني، وأني أريد أن أغني، أو أنوح. كنت دائماً أحس أني أنتظر شيئاً غامضاً. وكما ترى.. تأخر هذا الشيء الغامض، حتى غدوت شجرة خريفية تتساقط أوراقها.

حبيب : ماذا تخرّفين؟ أنت شجرة دائمة الخضرة، تتجدد مع كل فصل رَّيانة، كأرزة مباركة. ينبغي أن تعرفي أنكِ شجرة الحياة بالنسبة لي. أنت غذائي، ومستقبلي، ولا حياة لي بعيداً عن فيئك وثمارك.

سناء : يا رب.. كيف يمكن أن أفلت من فتنة هذا اللسان!

حبيب : ما أقوله ليس ألفاظاً وعبارات. إني أسكب بين يديك عصارة ما يجيش في أعماقي، من وجدٍ وشغفٍ وأمل. أخبريني إلامَ سيظل الارتياب يحول بيننا كالغيمة السوداء؟

سناء : ألجأ إلى الارتياب، لأني لا أدري ماذا أفعل.. أينبغي أن أعترف لك! أنت تعرف أنك سلبت رشدي.

حبيب : **(وهو يمسك يديها)** انطقيها يا سناء.

سناء : نعم.. إني أحبك. ومنذ التقيتك أحسُّ، أن عاصفة اجتاحتني، وتركت كل ما في داخلي مبعثراً ومقلوباً. فعلاً.. لا شيء يشبه ما حدث لي إلا العاصفة.

حبيب : هذه لحظة أجمل من أن يتحملها قلبي أو عقلي.

سناء : وما الفائدة؟ ليس بيننا إلا الحواجز والأسلاك.

حبيب : إن الحب سيمدنا بالعزيمة، كي نتجاوز الحواجز والأسلاك.

سناء : إني متزوجة ياحبيب.

حبيب : ولديكِ أربعة أولاد.

سناء : بيننا فروق المذاهب والعادات.

حبيب : لا يهتم بهذه الفروق إلا الحمقى. إن الله رحمة ومحبة، ونحن جميعاً أبناؤه وخلقه.

سناء : هذا جنون..

حبيب : إذن.. الجنون هو فرصتنا الأخيرة. وعلى كلٍ أنا أيضاً كنت متزوجاً.

سناء : تمنيت أن أسألك، ولكني تحرجت. حدثني عن زواجك.

حبيب : كنت أعيش في كنف عمتي، وحين حصلت على شهادة المحاماة قررتْ، وفي اليوم ذاته، أن تزوجني قريبة بعيدة، وبدأتْ على الفور، ترتب تفاصيل الزواج وشروطه.

سناء : هل كنت تحمل لها عاطفة أومحبة؟

حبيب : لا.. كان قلبي بياضاً خاملاً. وفي أوساطنا من يسأل عن الحب!

سناء : مع تفتحك وعلمك قبلت أن تتزوج مثلنا!

حبيب : كان هناك فضول يجعلني دائم التوتر. لا أدري.. كان يأتكلني النهم إلى سرٍّ غامض. لا أعرف أين ضيعته. وكإغراء منهك وشهي، كنت أدرك أن هذا السر، لن ينكشف إلا عبر المرأة ومعها.

سناء : وهل وجدت السر الذي تبحث عنه؟

حبيب : كان زواجاً فاتراً ومخيباً. جاءت تحمل روحاً مسيحية متواضعة، وجسداً طفلاً ينفر من الرغبة، ويخاف دنس المتعة. كانت خيالاً لا تشهق فيه عروق، ولا تصخب دماء. ومع ازدياد نهمي وخيبتي، كنت أندسُّ في الكراهية والصمت.

وكان يمكن أن أوالي انزوائي في الكراهية والصمت لولا أن الموت عاجلها. كان رحيلها مباغتاً، حتى أني لم أستوعبه. والآن أذكر جيداً، ذلك الوقت الذي كنت عائداً فيه من المقبرة. كانت الشمس تتوهج، على حافة الأفق، كانفجار من الشهوات والبرتقال. وكان البحر ساجياً، والجبال تسترخي على مصاطبها، وتسرح مع أشواقها المسائية. كان الكون موجات من الفرح تتدافع بلطف، وتسير عبر مسامي. أحسست في داخلي حشداً من الأماني والرغبات يتواثب في ردهات صدري، ويقيم أعراساً يلهبها الشوق والجمال. كانت تلك هي اللحظة الحاسمة في حياتي. وعرفت أن قدري، هو أن أكشف السرَّ، الذي راوغني عمراً.

سناء : وما هو هذا السرُّ، الذي تجري وراءه منذ الطفولة؟

حبيب : أعتقد أني بدأت أتعرَّفه، أو أتعرَّف الطريق إليه. إنه يشبهكِ، أو إنه أنتِ.

سناء : لا أستطيع أن أقاوم.. إني ضائعة. ماذا تظن أن بوسعنا أن نفعل؟

حبيب : اصغي إلي يا شجرة عمري. لم تعد لي حياة بعيداً عنك. وما سميَّته جنوناً، هو الهدية التي خبأها لنا الزمن كي نعيش السعادة التي طاردناها، وحلمنا بها طويلاً. سأظل أنتظرك، جالساً في هذه الغرفة، أو في سيارتي. سأنتظر.. وأنتظر. أياماً وشهوراً وسنوات حتى تأتي، وكل متاعك حقيبة صغيرة، وحضور متلألىء.

سناء : **(بحركة خرقاء، ترفع يده إلى شفتيها، وتقبلها)** وإذا لم أحزم أمري، ولم آتِ؟

حبيب : **(وهو يضمها إلى صدره)** قدري أن أواصل الانتظار حتى

رمقي الأخير.

سناء : إن حلاوة لسانك تخيفني. ينبغي أن أمضي.

حبيب : **(وهو يقبلها)** لا تنسي أني أنتظر.

سناء : **(وهي تنتزع نفسها منه)** حتماً لن أنسى.

حبيب : متى تأتين؟

سناء : وهل أدري!

(تختفي الإضاءة)

(٨)

فصل جريمة العصر

(تظهر فرقة الأراجوز في الساحة القريبة من بيت سناء. يضعون ما يحملون في الساحة من عدة وإكسسوارات. الصبية تتنكر في جلد قردة. مع بدء نداءات الأراجوز، والمباشرة بالحكاية اللعبة، يبدأ جمهور من السابلة بالالتفاف حولهم، مشكلين حلقة فرجة.)

الأراجوز : **(يفتح السلم، ويصعد بضع درجات. ينادي في كل الجهات)**

وتفرَّج يا سلام.. وتفرَّج يا سلام..

لم يعد في عملنا، أن نقلد مشية الختيار

ولا أن نحرق دبر الشمطاء وشعرها بالنار

وتفرَّج يا سلام.. وتفرَّج يا سلام..

(ترشق الصبية الأراجوز بالبصاق، ثم تطلق صفيراً حاداً ومشاغباً)

الأراجوز : **(ملاحظاً تجمع بعض الناس حوله)** أرجوكِ أن تكوني لطيفة، وأن تتعاوني معنا، كي نسرد الحكاية بتوافق وسلاسة.

الصبية : ما أغباكَ! ألم تفهم بعد، أن ميزة هذه الحكاية، هي أن يرويها كل واحد على هواه. **(تبصق نحوه باحتقار)** ولكن ما الفائدة! ما أنت إلا أراجوز عتيق وغبي.

(يتكاثر الناس حولهم. يومئ الأراجوز للشاب، فيبدأ بالقيام ببعض الحركات البهلوانية البسيطة، مستخدماً السلم والحبال، ومستعيناً بالولد. أما الأراجوز فيدور في الحلقة، منادياً ومعلناً.)

الأراجوز : وتفرَّج يا سلام.. وتفرَّج يا سلام..
سترون القردة العجيبة
التي لا ينطق لسانها إلا بلغة فصيحة
هي فريدة جنسها وزمانها
وتفرَّج يا سلام.. وتفرَّج يا سلام..
لم يعد في عملنا، أن نقلد مشية الختيار
ولا أن نحرق دبر الشمطاء وشعرها بالنار
وتفرَّج يا سلام.. وتفرَّج يا سلام..

(مع نداءات الأراجوز، يقوم الشاب ببعض الحركات البهلوانية، فيقف على رأسه، ويتسلق السلم، ورأسه مدلىً إلى الأسفل. أحياناً يتوقف الأراجوز، ويصفق للشاب، فيتبعه الحاضرون بالتصفيق.
يتناول الولد آلة هارمونيكا، ويعزف في البداية نغمات متقطعة وإعلانية. تتحول تدريجياً إلى أنغام حزينة ومؤثرة. تظهر سناء والمرأة على الشرفة المطلة على الساحة، وتتفرجان باهتمام. يزداد عدد المتزاحمين حول الحلقة.)

الأراجوز : سنروي لكم جريمة العصر التي روَّعت بلاد الشام في كل ريف ومصر

الصبية : **(تقفز متجهة نحو الأراجوز. تدفعه في صدره، وتبصق)**
سنروي لكم قصة حبٍ، كان يمكن أن يتحلى بها العصر
وأن تلفَّ بالشوق والحلم، كلِ ريف ومصر

الأراجوز : ستسمعون وقائع تبلبل، وأقوالاً تختبّل

الصبية : تفاهات ومبالغات..
كل ما حدث، هو جزء من أسرار الحب وتقلباته

الأراجوز : إذن اسمعوا أيها الأماجد والأكابر!
كان رفقي الغازي واحداً من الرجالات المرموقين، كان علماً

وطنياً.

الصبية : وأنا امرأته صفية الحافي، أدرى به من الأتباع والمرائين. كان سقيماً، وخائراً.. كان عنيناً.

الأراجوز : كان النضال من أجل الوطن، يستنفد كل طاقتي. وزاد ضعفي حين أصابتني قرحة في معدتي.

الصبية : عرفتك مع النضال والقرحة، وعرفتك دونهما. ولم يكن لديك في الحالين ما تدّعيه، أو تتباهى به.

الأراجوز : كانت امرأة..
كانت امرأة معتلّة بالشبق والنّهمة..
كانت امرأة مأبونة وفاسدة.

الصبية : إذا كانت الصحة، وطيب الشهية فساداً، فإني الفساد عينه.

الأراجوز : كانت سوقية الحركات، مكشوفة الألفاظ. وكانت الشهوة تفوح منها بلا حياء.

الصبية : كنت كالرغيف الذي قمّره الفرن، أفوح رغبة وحباً وحناناً. أما الرجل الوطني الكبير، فقد كان بارداً ومتقززاً، مثل سمكة نهرية.

الأراجوز : كنت أتعشم أنكِ من عائلة تحفظ التقاليد، وتصون العادات العريقة.

الصبية : كان يتعشم، بعد أن درس علوم المتمدنين، وتمتع بعاداتهم ونسائهم، أن يجد عند عائلة دمشقية عريقة، طفلة عمياء، يربكها الحياء، ورضا زوجها هو الغاية والرجاء.

الأراجوز : نعم.. كنت أبحث عن فتاة، تتسربل بالحياء والحشمة، لا عن تنّور يفور بالسوقية والغلمة.

متفرج : شو هالحكي.. شو يعني غلمة؟

الأراجوز : الغلمة يعني شدة الشهوة.

(ضحكات وتعليقات. يعلو صوت الهارمونيكا، ويدور

الأراجوز بين الناس، وهو يرجوهم الحفاظ على الهدوء.)

الصبية : **(وهي تقفز بحركات بهلوانية)** أيها العالم الكبير، والوطني الخطير.. لا تنقص البيت، الذي طرقتَ بابه، الفضيلة أو التقاليد. وما تجهله هو أننا نرث، رغم التزمت والتقاليد، تربية تعلمنا كيف نحوّل الزواج فرحاً ونشوة وسعادة. **(سارحة، وكأنها تحلم)** علمتني أمي، التي تعلمت من أمها، قالت.. إني أوصيك بوصية، إن قبلتها سعدت وأسعدت.. عندما يعود زوجك إلى البيت، تلقّيه في ثوب رفيع مطيَّب، يظهر بدنك من تحته. ثم اعتنقيه، وقبليه، ودغدغيه، وعضّيه، برفق، وشمّي صدره، وتقاصري تحت إبطيه، والصقي نهديك بجسده، فإن طوقك بذراعه، فانخري، واظهري له استرخاءً وفتوراً. وإن قبض على جارحة من جوارحك، فارفعي صوتك عمداً، وتنفسي الصعداء، ورِّقي أجفان عينيكِ. فإذا ضمك إلى حضنه، فأكثري الغنج والحركات اللطيفة، وصوِّتي باللفظ الفاحش، وقولي.. يا حياتي.. يا شفائي.. يا دوائي.. يا سروري.. يا شهوتي.. يا طبيبي.. يا حبيبي..

الأراجوز : **(يتناول عصاً، وينهال بالضرب على ظهرها وعجزها)** ما هذا؟ أيكفي أن نغفل لحظة، حتى تفلت كل براغيثِك. ألم أوصِك أن تحذفي هذا المقطع المشين.

الصبية : في هذا المقطع خبرة ولذة لا تستحقهما، ولن تقدّرهما ما حييت.

متفرجون : ـ لو أن حماتي علمت ابنتها شيئاً من هذا!

ـ أترى ماذا يعلم الأكابر بناتهم؟

ـ ما أقوى عينيها! وما أجرأ لسانها!

ـ حرام.. إنك توجعها.

ـ يا زلمة.. إنها تهين رجلاً وطنياً كبيراً.

- ولكن ما تقوله، لا يخلو من الحق.

- توقف يا رجل، وإلا قتلتها.

(يندفع بعض المتفرجين ومعهم الشاب، فيمسكون الأراجوز، ويحجزونه عن الصبية)

الصبية : **(وهي تقهقه)** اتركوه.. اتركوه.. حين يضربني يتوهم أن الميت الذي بين فخذيه، يحيى ويقوم.

(تغدو قهقهتها جلجلة. يختم الأراجوز الموقف. يدور في الحلبة، ثم يتسلق السلم، وهو ينادي)

الأراجوز : وتفرّج يا سلام.. وتفرّج يا سلام..

على أونا على دوة على تري..

(يغير الولد نغمات الهارمونيكا، فيما يقوم الشاب ببعض الحركات البهلوانية البسيطة)

يا أجواد.. يا كرام..

سنحكي عن الجريمة

التي روعت الناس، الشيب والشبان، في كل بلاد الشام.

الصبية : سنحكي قصة حب

نفحت العشاق إقداماً وجرأة، في كل بلاد الشام.

الأراجوز : كانت تحضّر السمَّ مع عشيقها.

الصبية : لا تستعجل.. مرّت سبع سنوات، تعودتُ خلالها أن أصبر، وأن أروّض جسدي، وأقهر رغباتي. حتى أحسستُ أن الشيخوخة تداهمني.

الأراجوز : وذات يوم.. جاء ابن أخي كي يُتم تعليمه في الجامعة، فرحبتُ به، وأفردتُ له غرفة في بيتي.

الصبية : في البداية لم يسعدني وجوده.

الشاب : **(يُقطِّع الكلمات، وأحياناً يتأتىء. تعلق الكلمة، فيبذل مجهوداً مرهقاً، كي ينجح في لفظها.)** كنت أقرأ في عينيها، تململاً

وازدراءً.

الأراجوز : حيلة قديمة كي تغويه، وتُفسد براءته.

الشاب : ليس صحيحاً. بدأ حبها يفوّر فؤادي، قبل أن تتعود وجودي. كان يكفي أن ألمح سحرها، حتى تتسلق جسدي رعشة من الخوف والحمّى.

الأراجوز : (غاضباً) هي التي أغوتك.

الشاب : لا.. لن أزوِّر الوقائع. كان الوجد والخوف والخجل، كل ذلك يختلط في داخلي، ويبدد سكينتي.

(يقترب الولد، ويدور حولهم، ناشراً في الجو لحناً، يموج بين الغضب والحنان)

الصبية : طلبت منه أن يستأجر له غرفة في المدينة.

الأراجوز : ونهرتها قائلاً.. هذا ابن أخي من لحمي ودمي، ولا يجوز أن يسكن إلا في بيتي.

الصبية : ومع الأيام.. بدأت أتفحص الهيام في عيني ابن أخيه. واكتشفت أنه شاب يفيض قوة وحياة.

الشاب : ومرة.. فاجأتني نظرتها، فاحمرَّ وجهي، وتعرَّق جسدي.

الصبية : أحببتُ ارتباكه واحمرار وجهه.

الشاب : كانت بحراً من السحر والجمال، وكنت أغرق فيها بلا رجاء.

الصبية : وفي صباح حار، مددت له يدي، وعلمته كيف يعوم.

الأراجوز : وتفرّج يا سلام.. وتفرّج يا سلام..
وكان السيد رفقي الغازي أنبل من أن تساوره الشكوك، أو تقلقه الوساوس.

الصبية : وانغمسنا في حب مهووس، لا يرتوي ولا يشبع. قطفت لذاتٍ لم أعرف لها اسماً. ودخلت جناتٍ لم أعرف لها وصفاً.

الشاب : وفي أطايب الجنة، كنت أنسى حنظل الخيانة.

الأراجوز : وتفرّج يا سلام.. وتفرّج يا سلام..

هيا.. هيا.. أيها الكرام.. اعذرونا.. وما قصدنا أن نزين الفحش والفجور. ولكن هذه اللعينة تكره الانضباط، وتعبد النشوز. باختصار.. وبعضكم لا يجهل ماصار..

تعلقت المرأة بالشاب. ولم يعد يستغني أحدهما عن الآخر، في الليل أو النهار.

الصبية : لم أعد أحتمل، أن يكون بيننا زوج، وأن أعيش في التظاهر والكذب.

الشاب : فجأة صاحت.. طلبت الطلاق مراراً، ولم يقبل. هذه الحياة منغّصة.. ولن تصفو إلا إذا تخلصنا منه.

الصبية : اصفرّ وجهه، وبدأ يرتعش.. كنت أعلم أنه خَرِع.

الشاب : كنت أتمزق بين أطايب الجنة، ومرارة الخيانة.

الأراجوز : وأخرجتْ من جيبها برشامة السم.

الصبية : انظر.. في هذه البرشامة خلاصنا. إنها كبرشامات القرحة، التي يتناولها كل ليلة. وإذا تناولها الليلة، فلن يطلع عليه صبح. **(يبدأ الشاب بالارتعاش)** ما لَكَ؟ إنك تنهار مثل طفل جبان.

الشاب : **(متأتئاً)** ما تفكرين به رهيب.

الصبية : لن يكون رهيباً إذا وقفت إلى جانبي. أم أنك تريد أن ندفن ما بيننا ونفترق.

الأراجوز : وتفرّج يا سلام.. وتفرّج يا سلام..

يا أجواد.. يا كرام..

هدأت مخاوف الشاب، ولو إلى حين. وفي المساء سقت البرشامة للزوج البريء. وفي الغداة ماجت الناس على خبر الوفاة. وخيّم الأسف والحزن على بلاد الشام.

(يتحول صوت الهارمونيكا شبيهاً بالنحيب)

الأراجوز : وتفرّج يا سلام.. وتفرّج يا سلام..
ودفن الرجل الكبير في جنازة مهيبة. وفي مجلس العزاء، تقبلت الزوجة وابن الأخ التعازي ومواساة الناس.

الصبية : ولولا هذا الخَرِع، لانطوى الخبر، وفات الأثر.

الشاب : أصابتني حمى شنيعة، ورحت أهذي، وأفشي كل شيء.

الأراجوز : مع هذيان الحمى، كان يصيح جاحظ العينين.. قتلنا أبي.. قتلنا أبي.

الصبية : كيف استطعت أن أحب رعديداً مثلك؟ لولاه.. لفات الأمر.

الأراجوز : إن الله يمهل ولا يهمل. وهذه الجريمة الرهيبة لا يمكن أن تفوت.

الصبية : **(بعنف وغضب)** قلت لك.. لن أوافق على هذا الترتيب، ولن تؤثر فيّ هذه الحكم المحفوظة، التي تتشدق بها. منذ البداية أردتَ أن تمسخني قردة مكروهة، ومتوحشة. انظر.. إذن.. **(تنزع بغضب جلد القردة، فتظهر صبية مليحة الوجه، لطيفة القوام)** إني امرأة حية، وعروقي تفيض بالدم والصحة.

الأراجوز : إنك تفسدين العمل.

الصبية : لا أفسد إلا أفكارك السقيمة، وأحكامك السامة. وقفت تلك المرأة في المحكمة، وواجهت القضاة بثبات وجرأة. قالت.. نعم.. لقد قتلت.

الأراجوز : وسأل القاضي.. هل تدركين فظاعة ما اقترفت يداكِ؟

الصبية : أهو أشد فظاعة من الإهانة والاحتقار البارد، اللذين تحملتهما سبع سنوات متوالية!

الأراجوز : وهاجت قاعة المحكمة، وتدفقت الشتائم..

الصبية : اخرس، ودعني أتابع.! تحمّلت احتقاره البارد سبع سنوات، وأنا أقول في نفسي.. لكل إنسان نصيب وقدر، وهذا ما

قُسم لي بين الأقدار. وحين التقيت هذا الشاب، وبدأت أسبح في مائه وفتوته.

الأراجوز : وعلا الصياح في القاعة، وانهالت عليها الشتائم المبللة بالبصاق.

الصبية : قلت اخرس.. ودعني أتابع. حين أحببت، وتفتح جسدي للحياة، حين تجاوزت شعوري بالذل والسوقية، أدركت أني لم أعد أحتمل الإهانة والاحتقار البارد. كان قدري يتوضح في داخلي. ولم يخطر لي لحظة واحدة أن أخادع قدري، أو أن أفر منه. بين الاحتقار البارد وهذا الحب الذي جددني، وأوقد اللهب في جسدي. كان ينبغي أن أختار.. كان ينبغي أن أقتل.

الأراجوز : ماجت القاعة وهاجت. ألست نادمة؟

الصبية : **(بعنف)** لا.. لست نادمة. كان القدر قد رتَّب كل شيء. ولم يكن أمامي إلا القتل. كانت تلك فرصتي، رغم أن هذا الولد البوّال، أفسدها.

الشاب : **(نائحاً)** قتلت أبي.. قتلت أبي..

الأراجوز : يا أمجاد.. يا كرام.. تلك كانت جريمة العصر وملابساتها، فماذا تحكمون؟

المتفرجون : **(أصوات غاضبة وغير متناسقة)** الموت.. الإعدام للخائنة.. الإعدام شنقاً وفوراً..

الصبية : كلكم رجال خائفون.

المتفرجون : اشنقوها.. اقتلوها فوراً..

الصبية : كلكم تجهلون دفء الحب، وتعششون كالصراصير في برودة الاحتقار.

المتفرجون : اشنقوها.. اشنقوها.

الأراجوز : **(مرتبكاً)** وتفرّج يا سلام.. وتفرّج يا سلام..

اهدأوا.. اهدأوا..
سنعاقب الجريمة في التو واللحظة.
(يجرها نحو السلم، واضعاً الحبل المعقود حول عنقها)
يا أجواد.. يا كرام..
هذه هي الحكاية..
عائلة منكودة، ضربها الحظ بالقتل والخيانة.
أسعفونا بعونكم! وبادرونا بما يجود به فضلكم..
(يتحول عزف الهارمونيكا قوياً، تتميز فيه إيقاعات راقصة ومليئة بالفرح. يحمل الشاب وعاءً، يدور فيه على الحاضرين. البعض يرمي قطعاً نقدية في الوعاء، والبعض الآخر يتسل متملصاً من الدفع.
تختفي الإضاءة في الساحة، بينما تظل بقعة ضوء على الشرفة، التي تقف عليها سناء والمرأة.)

سناء : لقد تملّ بدني.
المرأة : هذه امرأة تثير الدهشة.
سناء : إنها مخيفة.
المرأة : إنها عاشقة.

سناء : **(وهي تدخل إلى البيت)** إني أرتعش.
المرأة : **(وهي تتبعها)** لا سعادة، إلا إذا ملكنا بعض جرأتها.
(يدخلان المنزل.
وتختفي الإضاءة.)

(٩)

فصل المراودة على الفساد

(عدنان يجلس أمام طاولة منزوية في مقهىً شعبي. بعد قليل ينضم إليه سرحان.)

سرحان : عجيب.. ما الذي جعلك تختار هذا المقهى البلدي؟

عدنان : وما له المقهى! هنا تعودت أن أنتظر صديقي شامل السيروان، الذي سيأتي من دمشق بعد قليل.

سرحان : إذن لم تأتِ للقائي!

عدنان : وهل يحتاج الأخوة إلى مواعيد ولقاءات! حتى الآن ما زلنا نعيش في بيت واحد، ولدينا ما يكفي من الوقت، كي نتبادل الحديث. ومع هذا شغلت بالي. قل لي ماذا هناك.؟

سرحان : لا شيء.. فجأة لاحظت، أننا نادراً ما نتبادل الحديث. ولذا قررت أن نلتقي بعيداً عن البيت، كي نقلّص البعاد، ونتعود أن نتبادل البوح والكلام.

عدنان : من جهتي.. لا يوجد بعاد، ولا لوم. فأنا أعرف أن الجامعة لاتترك وقتاً، كي تنشغل بشؤون البيت والأخوّة.

سرحان : دعنا من الجامعة. أودُّ أن نتحدث عنك لا عني.

عدنان : عني أنا.. ماذا هناك؟ هل وجدت لي عروساً ملائمة.

سرحان : العروس مسألة هيّنة، إذا فتحت عينيك، واقتنصت الفرص المتاحة لك.

عدنان : وحقِّ أخوَّتنا.. لا أفهم ماذا تريد أن تقول.

سرحان : إن أمي محقة حين تصفك بالدرويش. أتعلم أنك تعمل في منجم من الذهب؟

عدنان : هل تعتبر المرفأ، بما فيه من مشاكل وقذارات، منجماً للذهب؟ وحق أخوّتنا لو اصطحبتك معي، لما استطعت أن تتحمل عفونة المرفأ ساعة من الزمان.

سرحان : ما أعرفه.. هو أن المرفأ ممر للخيرات، وأن الشاطر كالمنشار، يقتطع حصته في الدخول وفي الخروج.

عدنان : **(وهو يضحك)** أتطلب مني كما يطلب العامة.. أن أكون منشاراً، يلهف على الطالع وعلى النازل؟

سرحان : لماذا يدفع الموظفون إذن رشاوات سخية كي ينتقلوا إلى المرفأ. ألم يقل مندوبنا السامي.. «إن أهل السياسة والعاملين في الدولة مثل المرأة، يظلون محترمين مهما خالفوا وأخذوا، شرط ألا يمسكهم الناس، وأيديهم في الكيس.» والله أحب هذا ال دي مارتل ومجونه.

عدنان : ولماذا يشغلك هذا العالم الفاسد الذي يعجُّ بالرذائل؟ توقعت أن تحدثني عن الجامعة، حيث العلم والنقاء والمستقبل الزاهر. لو تعلم كم أنت محظوظ يا سرحان!

سرحان : لا تبالغ في تقدير الجامعة يا عدنان، ولا تتحسر لأنها فاتتك. بين الجامعة والحياة خندق غميق. وما نتعلمه هو أحلام هشة، لا تصمد أمام خشونة الواقع الفعلي. لا.. لن أفني سنوات شبابي في دراسة الأوهام. إن الحياة رغم صعوباتها ومخاطرها تشغفني، وتناديني، كي أنتزع حصتي منها.

عدنان : لا أدري لماذا تستعجل الحياة العملية إلى هذا الحد!

سرحان : اتخذت قراري، والفرصة جاهزة كي نتعاون، ونقطف المنافع معاً.

عدنان : ماذا تعني؟

سرحان : لدي صديق تاجر، لا يعمل إلا بالبضائع الخفيفة والثمينة. وإذا غضَّ الموظف طرفه، ملأت الآلاف جيوبه.

عدنان : وحقِّ أخوّتنا أكاد أنكرك. أتظن أني لا أعرف هذه البضائع الخفيفة والثمينة؟ ما الذي قادك إلى هذه الأجواء المسمومة؟ أيعقل أن تأتي، أنت المثقف الذي نعتز به، كي تزيّن لي تهريب المخدرات وما شابهها؟

سرحان : إني أبسط أمامك الغنى والرفعة، وما تشتهي من المباهج.

عدنان : لا أريد هذه الثروة والمباهج المسمومة.

سرحان : إذن.. هنا حفرنا وهنا طمرنا.

عدنان : أقول لك بصراحة، لن أسمح لك بالتورط.

سرحان : لا تحاول أن تكون وصياً عليّ. هذه حياتي، ولا أحتاج من يخطط لي كيف أعيشها. **(وهو ينهض)** كم تحب الفقر والدروشة يا أخي!

(يدخل شامل السيروان، وهو دركي من دمشق، طويل القامة مليح الوجه)

شامل : السلام عليكم.. لعلي تأخرت.

عدنان : **(وهو ينهض مرحباً)** أهلاً بك متى جئت. هذا أخي سرحان، وهذا صديقي شامل السيروان.

سرحان : تشرّفنا.. ولكن كنت أتأهب للخروج، فلا تؤاخذني.

شامل : لا.. أبداً. ليس بيننا تكليف.

عدنان : ربما التقينا في البيت.

سرحان : **(وهو يمضي)** ربما.

عدنان : تفضل.. تفضل.. **(وهما يجلسان)** اشتقنا لك يا رجل.

شامل : لم يعد هناك من يقبضون عليه.

عدنان : هل كانت الإعتقالات واسعة.

شامل : لم يتركوا شاباً من شباب النوادي، أو الناشطين في الكتلة.

عدنان : وما سبب هذه الحملات في رأيك؟

شامل : هناك سخط عام، وهناك الحرب التي تقترب.

عدنان : أما زالت هذه المهمات ترهقك؟

شامل : ترهقني فقط! لقد حاولت كثيراً، أن أتملَّص من هذه المهمات، ولكنهم أصروا على وجودي كعنصر ضبطٍ في القافلة. تصور أنك تنقل أبناء بلدك، الذين يدافعون عنك وعن البلد، لتضعهم في سجون الأعداء، وتحت رحمتهم.

عدنان : هوّن عليك.. فنحن جميعاً نعيش حياةً غريبة، ومليئة بالتناقضات. آه.. لو تعلم ما الذي كان يفاتحني به أخي!

شامل : هل قطعت حديثكما؟

عدنان : لا يا زلمة.. كان مجيئك رحمة.

شامل : أهي خلافات في العائلة؟

عدنان : إن الدنيا تهترىء، ولا يبقى فيها مكان للخير. وعلى كلٍ هناك كلام لا يمكن يُقال، أو يُبلع إلا مع كأس من العرق. هيا أخي شامل..

شامل : **(وهو ينهض)** والله لا أنكر أني جائع، وأحتاج كأساً من العرق.

(تختفي الإضاءة.)

(١٠)

فصل القرار ونهاية الانتظار

(صالون البيت. سناء والمرأة. ترتدي سناء حجاباً سميكاً، وتحمل حقيبة سفر صغيرة. يبدو أن المرأتين تتأهبان للخروج)

سناء : كأني في حلم.. أوكأن واحدة أخرى هي التي تشعر، وتتحرك. لا.. هو شعوري. أحس أن قلبي كالخطاف، يريد أن ينعتق من صدري، وأن يسبقني إليه.

المرأة : إذن.. لم تبقَ هناك شكوك أو وساوس.

سناء : لا شك أن هناك وخزات صغيرة في الأحشاء. إني أترك ورائي عمراً وأولاداً.

المرأة : لا نريد أن نستفيق على التحسّر والندم.

سناء : إن اللهفة التي أحسُّها، هي أغزر وأعنف من أن تترك مجالاً للتدم. في داخلي سيول من المشاعر. لا أعرف كيف تكوّنت، ولا متى تدفّقت. كل هذا جديد ومدوِّخ. أكنت تعرفين أن هذه هي علامات الحب؟

المرأة : كنت أعلم أنك عاشقة، وكنت أعلم أن مقاومتك محزنة وعقيمة.

سناء : نعم.. لا شك أن هذا هو الحب. لم يعد يفارقني في ليلي أو نهاري. أحسُّ أني أطفو فوق مشاعري، كما لو كنت ثمرة يحملها بردى، تحت البيوت وفي الظلال، كي تلتقطها يداه.

المرأة : ما الذي جعلك تذكرين بردى الآن؟

سناء : شيء غريب! إن عمري يختلط في ذهني، بلا نظام أو

ترتيب. في لحظة أشعر أني في الرابعة عشرة من عمري.

المرأة : وأنكِ تخرجين من البيت، خروج تلك الفتاة المبللة بالمطر، والتي كان أخوكِ يتعجّل طلّتها.

سناء : لم أكن أعرف سطوة الحب، ومعناه. لكن الهياج والحسد والانفعال، كل ذلك أرّقني الليل كله.

المرأة : وتراكمت السنون فوق السنون، وأنت تنتظرين، أن تعيشي هذه اللحظة التي ترتجف حباً وقلقاً وخوفاً.

سناء : لا أدري.. إني في السابعة والثلاثين أو أصغر. أشعر أني بلا عمر، وأن جسدي ينحل، ويذوب، كلما تصورت أنه يغمس يديه في الماء، منتظراً وصولي.

المرأة : أتحسين حقاً أنك ثمرة يحملها بردى إليه؟

سناء : بردى.. والسنوات.. والأحلام الغامضة.

المرأة : إذن.. لماذا نتلكأ؟ دعينا نمض.

سناء : لا أستطيع أن أمضي، قبل أنَ أرى ابنتي ليلى. امضي أنتِ..

المرأة : ألن تتراجعي؟

سناء : أوه.. ما كنت لأحمل حقيبتي، لو أن هناك مجالاً للتراجع.

هيا امضي، ولا تقلقي.

المرأة : الأفضل أن أمضي. حين تنظر إلي، أحس أنها تغمد سكيناً في وجهي.

سناء : أرجوكِ لا تلوميها.

المرأة : من المؤكد أني لا ألومها. **(وهي تخرج)** لا تتأخري.

سناء : هي بضع دقائق، لا أكثر. **(تختفي المرأة. تنظر سناء إلى الساعة، تتمشى بضع خطوات قلقة. تحمل الحقيبة، ثم تضعها على الأرض. تفتح حقيبة يدها. تخرج مرآة صغيرة، وتنظر إليها)** يا الله.. ما أشد شحوبي! **(تتناول من الحقيبة علبة صغيرة، وتحاول أن تضع بعض الحمرة على خديها. تسمع**

وقع أقدام، فتعيد كل شيء إلى الحقيبة، وتغلقها. تدخل ليلى)
الحمد لله أنك لم تتأخري.

ليلى : **(تقبّل أمها، ثم تتأملها)** ولماذا ترتدين الحجاب؟

سناء : إني أحتاج سترته.

ليلى : ماذا هناك، وما هذه الحقيبة؟

سناء : **(وهي تغصّ بالبكاء)** منذ يومين، وأنا أرتب في رأسي الكلمات والعبارات، كي أجيب على أسئلتك. وها أنا مرتبكة.. لا أجد عبارة واحدة مما حضّرت!

ليلى : ولماذا تحتاجين إلى ترتيب الكلمات والعبارات؟

سناء : لأني..

ليلى : لأنك؟

سناء : **(باندفاع)** لأني سأترككم.

ليلى : تتركيننا! إلى أين؟

سناء : **(والدموع تنساب من عينيها)** ربما كان مخجلاً أن تحدّث الأم ابنتها عن أمر كهذا. أنت أقرب أولادي إلى قلبي، وأريد أن أشاطرك سرّي. إن أمك على حافة الجنون يا ليلى.

ليلى : **(مبهوتة)** أمي! ماذا تقولين؟

سناء : لا أعرف كيف حدث ذلك.! لعلي كنت أنتظره منذ كنت في سنك.. أو لعله كان شوقاً ظلّ يتخمر، ويكبر، حتى انفجر في داخلي، وأفقدني صوابي.

ليلى : ماذا تريدين أن تقولي؟

سناء : **(متضرعة)** أرجوك لا تكوني قاسية، وحاولي أن تفهميني. قاومت كثيراً، وعاندت نفسي طويلاً، ولكن لم أستطع. كان ذلك أقوى مني. كان كالمرض الخفي، ينمو داخلي، وفي غفلة عني. أعرف أن هذا كله، لن يبرّرني في عينيكِ. ولكن ماذا أفعل؟ تلك هي الحقيقة. إني أحب رجلاً، وأريد

أن أعيش معه.

ليلى : أمي.. لا تقولي إنك جادة. هذا شيء لا يُعقل!

سناء : آه يا ابنتي.. قد أكون مخبولة، أو ممسوسة. ولكني لم أكن في حياتي أكثر جدية وتصميماً مما أنا عليه الآن.

ليلى : ونحن.. هل فكرت بنا ولو قليلاً؟

سناء : بل فكرت فيكم كثيراً، ووجدت أنكم تستطيعون الاستغناء عني دون مشقة.

ليلى : والفضيحة؟ كيف يمكن أن نواجه الفضيحة؟

سناء : لن يعرف حقيقة اختفائي سواكِ. حمّلتك سري، لأني أعرفك كتومة، ولأني أتمنى أن يظل بيني وبينك أمل ورابطة.

ليلى : **(منفجرة بالبكاء)** أماه.. أبوس يدك.. أتوسل إليك أن تراجعي قرارك.

سناء : اسمعي يا ابنتي.. لقد أمضيت عمري كله، لم أتخذ فيه أي قرار. كانت القرارات دائماً مُبرمة، وما علي إلا أن أنفّذها.

واليوم.. حين استطعت، بعد عذاب يفوق عذاب المخاض والولادة، أن أتخذ قراراً لنفسي وبنفسي، لن أتخلى عنه، ولو كان فيه مماتي. **(وهي تحضنها، وتقبّل رأسها)** أتفهمينني يا ليلى! أرجوك أن تفهميني.

ليلى : حتى لو فهمتك، فإني لا أستطيع أن أقبل ما تفعلينه. ماذا سأقول لأبي وإخوتي حين يسألون عنك؟

سناء : **(وهي تفتح حقيبتها، وتخرج منها ورقتين مطويتين)** لستِ مضطرة لأن تقولي لهم شيئاً. **(تناولها الورقة الكبيرة)** أعطي هذه الرسالة لأبيك وإخوتك. وإذا اشتقت لي يوماً، فهذا هو عنواني. **(تمدُّ لها الورقة الصغيرة)**

ليلى : لن أشتاق إليكِ، ولا أريد أن أعرف أين تكونين.

سناء : لا ألومك.. وعلى كل إذا خفّ غضبك واشتقت لي،

ستجدينني في بيت حبيب الشمالي، الكائن في أعلى جونيه. لو لم تكوني الأثيرة إلى قلبي، لما أعطيتك سري. فكوني كتومة يا ليلى، ولا تفضحي أمكِ.

(تقبلها بنهم وشغف، ثم تمسح دموعها، وتحمل حقيبتها، وتمضي)

ليلى : **(وهي تتمسك بثيابها)** أماه..

سناء : في خريف العمر، أحببت وقررت يا ابنتي. ولم أترك أمامي سبيلاً للتراجع.

ليلى : أماه..

سناء : **(وهي تتملص منها، وتخرج بخطىً عجلى)** عيشوا حياتكم، ولا تفكروا بي.

ليلى : **(تجحظ عيناها، وتظهر تشنجات متزايدة في وجهها وأطرافها)** أمي عاشقة.. أمي عاشقة.. جونيه.. ما اسمه.. أسفل جونيه.. أعلى جونيه.. لا أذكر.. لا.. لا.. لا..

(تسقط على الأرض متخبطة.

وتختفي الإضاءة.)

وقع أقدام، فتعيد كل شيء إلى الحقيبة، وتغلقها. تدخل ليلى)
الحمد لله أنك لم تتأخري.

ليلى : **(تقبّل أمها، ثم تتأملها)** ولماذا ترتدين الحجاب؟

سناء : إني أحتاج سترته.

ليلى : ماذا هناك، وما هذه الحقيبة؟

سناء : **(وهي تغصّ بالبكاء)** منذ يومين، وأنا أرتب في رأسي الكلمات والعبارات، كي أجيب على أسئلتك. وها أنا مرتبكة.. لا أجد عبارة واحدة مما حضّرت!

ليلى : ولماذا تحتاجين إلى ترتيب الكلمات والعبارات؟

سناء : لأني..

ليلى : لأنك؟

سناء : **(باندفاع)** لأني سأترككم.

ليلى : تتركيننا! إلى أين؟

سناء : **(والدموع تنساب من عينيها)** ربما كان مخجلاً أن تحدّث الأم ابنتها عن أمر كهذا. أنت أقرب أولادي إلى قلبي، وأريد أن أشاطرك سرّي. إن أمك على حافة الجنون يا ليلى.

ليلى : **(مبهوتة)** أمي! ماذا تقولين؟

سناء : لا أعرف كيف حدث ذلك.! لعلي كنت أنتظره منذ كنت في سنك.. أو لعله كان شوقاً ظلّ يتخمر، ويكبر، حتى انفجر في داخلي، وأفقدني صوابي.

ليلى : ماذا تريدين أن تقولي؟

سناء : **(متضرعة)** أرجوك لا تكوني قاسية، وحاولي أن تفهميني. قاومت كثيراً، وعاندت نفسي طويلاً، ولكن لم أستطع. كان ذلك أقوى مني. كان كالمرض الخفي، ينمو داخلي، وفي غفلة عني. أعرف أن هذا كله، لن يبرّرني في عينيكِ. ولكن ماذا أفعل؟ تلك هي الحقيقة. إني أحب رجلاً، وأريد

أن أعيش معه.

ليلى : أمي.. لا تقولي إنك جادة. هذا شيء لا يُعقل!

سناء : آه يا ابنتي.. قد أكون مخبولة، أو ممسوسة. ولكني لم أكن في حياتي أكثر جدية وتصميماً مما أنا عليه الآن.

ليلى : ونحن.. هل فكرت بنا ولو قليلاً؟

سناء : بل فكرت فيكم كثيراً، ووجدت أنكم تستطيعون الاستغناء عني دون مشقة.

ليلى : والفضيحة؟ كيف يمكن أن نواجه الفضيحة؟

سناء : لن يعرف حقيقة اختفائي سواكِ. حمّلتك سري، لأني أعرفك كتومة، ولأني أتمنى أن يظل بيني وبينك أمل ورابطة.

ليلى : **(منفجرة بالبكاء)** أماه.. أبوس يدك.. أتوسل إليك أن تراجعي قرارك.

سناء : اسمعي يا ابنتي.. لقد أمضيت عمري كله، لم أتخذ فيه أي قرار. كانت القرارات دائماً مُبرمة، وما علي إلا أن أنفّذها. واليوم.. حين استطعت، بعد عذاب يفوق عذاب المخاض والولادة، أن أتخذ قراراً لنفسي وبنفسي، لن أتخلى عنه، ولو كان فيه مماتي. **(وهي تحضنها، وتقبّل رأسها)** أتفهمينني يا ليلى! أرجوك أن تفهميني.

ليلى : حتى لو فهمتك، فإني لا أستطيع أن أقبل ما تفعلينه. ماذا سأقول لأبي وإخوتي حين يسألون عنك؟

سناء : **(وهي تفتح حقيبتها، وتخرج منها ورقتين مطويتين)** لستِ مضطرة لأن تقولي لهم شيئاً. **(تناولها الورقة الكبيرة)** أعطي هذه الرسالة لأبيك وإخوتك. وإذا اشتقت لي يوماً، فهذا هو عنواني. **(تمدّ لها الورقة الصغيرة)**

ليلى : لن أشتاق إليكِ، ولا أريد أن أعرف أين تكونين.

سناء : لا ألومك.. وعلى كل إذا خفّ غضبك واشتقت لي،

ستجديني في بيت حبيب الشمالي، الكائن في أعلى جونيه. لو لم تكوني الأثيرة إلى قلبي، لما أعطيتك سري. فكوني كتومة يا ليلى، ولا تفضحي أمكِ.

(تقبلها بنهم وشغف، ثم تمسح دموعها، وتحمل حقيبتها، وتمضي)

ليلى : **(وهي تتمسك بثيابها)** أماه..

سناء : في خريف العمر، أحببت وقررت يا ابنتي. ولم أترك أمامي سبيلاً للتراجع.

ليلى : أماه..

سناء : **(وهي تتملص منها، وتخرج بخطىً عجلى)** عيشوا حياتكم، ولا تفكروا بي.

ليلى : **(تجحظ عيناها، وتظهر تشنجات متزايدة في وجهها وأطرافها)** أمي عاشقة.. أمي عاشقة.. جونيه.. ما اسمه.. أسفل جونيه.. أعلى جونيه.. لا أذكر.. لا.. لا.. لا..

(تسقط على الأرض متخبطة.
وتختفي الإضاءة.)

الحفيد : كان صعباً أن تتذكر أمي ماذا أصابها. سقطت على الأرض، ودخلت في غيبوبة، لا تذكر متى استفاقت منها، ولا كيف فقدت القدرة على النطق بعدها. لجأتُ إلى خالتي، ورجوتها أن تنبش ذاكرتها.

سلمى : نسيتُ تلكَ المسخرة، ولا أريدُ أن أتذكرها.

الحفيد : ما عاد أحد يتذكر سواكِ. أرجوك لا تبخلي عليَّ بحكاية تلك الوقائع.

سلمى : وما حاجتك إليها؟

الحفيد : ألا يحتاج المرء أن يعرف أهله والناس الذين يحمل هويتهم.

سلمى : كأنك تحيي تاريخاً مخجلاً، يلطِّخ صباكَ وكبرياءك.

الحفيد : ومع هذا فأنا مصرٌ على متابعة الإلحاح.

سلمى : أف.. يومها شعرت أني أفقد رفعتي وتميّزي. وحين ستدوّي الفضيحة، سنغدو كالسوقة والعامّة من أهل الحي. لا رهافة.. ولا شيء إلا السّوقيّة والابتذال.. أما كان يمكنها أن تتخذ عشيقاً بالخفاء، وتوفر علينا الثرثرة، ونمائم العامة! في ذلك اليوم، تيقنت أني سأخسر كل ما أصبو إليه، إذا لم أقطع صلتي بالبيت. لم يغضبني ما فعلَتْهُ، بل أغضبني الأسلوب البلدي والفاضح، الذي فعلته به.

الحفيد : رأيك ثمين يا خالة.. ولكن الوقائع هي التي تهمني الآن.

سلمى : جاهدت طويلاً كي أنسى تلك الوقائع. لقد غدت بعيدة، ولا أدري ماذا بقي منها في الذاكرة!

الحفيد : أرجوك أن تنبشي ذاكرتك جيداً.

سلمى : أف.. ما أشد إلحاحك! سأحاول.. سأحاول..

(١١)

فصل الغضب والدموع

(يُضاء الصالون، ويظهر الأب عبد القادر والأولاد عدنان وسلمى وسرحان وليلى، التي يبدو عليها الإرهاق والخوف.)

سلمى : لا أذكر كيف اجتمعوا.. ولكن كنا جميعاً مسمَّرين في الصالون، نتبادل نظرات متوجِّسة وحائرة. وكانت أمك ليلى ممتقعة الوجه. عاجزة عن النطق. تنقل بصرها بيننا ببلاهة وخوف.

عبد القادر : **(متحيِّراً وغاضباً)** ماذا يجري؟ أين أمكم؟

سلمى : حقاً.. أين أمي؟

(تصوِّت ليلى، باكية وفزعة)

عبد القادر : ما هذا النباح؟ **(يصفعها)** تكلّمي!

سلمى : أبي.. لا شك أنها مريضة، وتحتاج إلى عناية طبيب.

عبد القادر : وما هذا المرض المفاجئ الذي يربط اللسان؟ أريد أن أعرف. اذهبي ونادي أمك!

(تنساب الدموع غزيرة من عيني ليلى، تدور في الصالون، وكأنها تبحث عن شيء. تتوقف لحظة هنا وهناك. فجأة تصوِّت حين تغدو قرب الغرامفون. تتناول عن القرص الأسود ورقة بيضاء مطوية، وتحملها إلى أبيها. يجتذب الفضول سرحان وعدنان كي يقتربا من الأب.)

عبد القادر : ولكن ما هذا؟ ما هذا؟ أصحيح ما تقرأه عيناي؟

سرحان : أبي.. أخبرنا ماذا هناك؟

عبد القادر : ماذا هناك.! ينبغي أن أذبح وأقتل.. جعلتني عرّة بين

الرجال.. وسنغدو جميعاً مضغة في الأفواه..

سلمى : لم أجد أمي في البيت.

عبد القادر : طبعاً لن تجديها. لقد رحلت.. وهي تطلب من أجلنا ومن أجلها، ألا نبحث عنها. أريد أن أعرف.. متى نشأت وترعرعت الخيانة في هذا البيت.؟

عدنان : هذا شيء فظيع.. شيء فظيع..

سرحان : لا أفهم.. هل تعني.. أن أمي.. هربت.. مع..

عبد القادر : ما أشد براءة أولادي! ولماذا تهرب إن لم يكن هناك حسُّون قد غرّد لها، وأغواها. هذا الرحيل لا يمكن أن يكون مرتجلاً، ولا ابن ساعته. لا شك أنها ترتِّبه منذ وقت طويل. ولا يمكن أن تغفلوا جميعاً عن هذه الترتيبات.

سلمى : أبي.. أيمكن أن تظن..

عبد القادر : لا أدري ماذا أظن.. هذا العمل مطبوخ على نار هادئة. وهي تطلب ببساطة أن ننساها، وأن نغفر لها إن استطعنا. لا يمكن أن يتم ذلك دون أن يلاحظه أحد منكم. وأنتِ.. **(يقترب من ليلى. يمسك شعرها بقسوة، ويهز رأسها)** ما الذي تخفينه! وما معنى أن تفقدي النطق هذا اليوم بالذات؟

(تصوِّت ليلى بلوعة ورعب)

عدنان : **(بحنان)** أبي أرجوك أن تهدأ. إنها مريضة، ولا نعرف ماذا أصابها.

عبد القادر : وأنا مريض.. ومهان.. ولا أعرف كيف أهدئ فوران دمي. أنا عبد القادر الطّحاوي.. تفرّ امرأتي من تحت فخذي، وتجعلني ديُّوثاً له قرنان. وأولادي عيونهم ساهية، يشغلون أباهم بالمظاهر والتمدُّن. أهذا هو التمدُّن؟.

(يمزق ثيابه الإفرنجية، ويرميها على الأرض بادئاً بالسترة)

سلمى : أبي.. أتوسل إليك أن تهدأ. لا تدع نزوة أمي تضيِّع المستوى

المرموق، الذي حققناه.

عبد القادر : أهذا هو المستوى المرموق، الذي كنتم تدفعوننا إليه! أن تفرّ الزوجة والأم مع رجلٍ نكرة، وأن نكتفي بالهدوء، واعتبار الحادث نزوة! **(يواصل تمزيق ملابسه)** خذوا تمدُّنكم.. خذوا رقيّكم.. خذوا عماكم.. خذوا العار والبسوه..

(لم يعد يستره إلا القميص والسروال الداخلي. والزبد يتجمع على زاويتي فمه. تجلس ليلى على الأرض، تخفي رأسها في حضنها، وتنخرط في بكاء صامت.)

عدنان : **(ذاهلاً)** أمي تفرُّ مع رجل.. هذا شيء فظيع.. شيء فظيع..

عبد القادر : وأنت.. بدلاً من الولولة، لماذا لا تتصرف تصرف الرجال!

عدنان : ماذا تريدني أن أفعل؟

عبد القادر : أيها المقدام.. أيها المغوار.. أيها الدركي اليقظ.. أليس عملك مطاردة المجرمين والقبض عليهم! فما بالك إذا كان المجرم أمّاً زانية، هجرت بيتها وأولادها.

عدنان : أتريدني أن أبحث عنها؟

سرحان : **(وهو يتصنّع البكاء)** أما أنا فقد ضاع مستقبلي. كيف أستطيع أن أواجه زملائي في الجامعة؟ لو انتشر الخبر فلن أدخل حرم الجامعة أبداً.

سلمى : كلما زادت ضجتنا، كلما كبرت فضيحتنا.

عبد القادر : وماذا تقترحين؟

سلمى : أن نخفي القصة، وأن نسدل عليها ستاراً من الصمت.

سرحان : وأنا أشاطرك الرأي تماماً.

عبد القادر : ولكن.. اشرحا لي كيف يمكن أن نخفي هذا العار؟

سلمى : سنقول إنها مريضة، وإنها آثرت أن تقضي فترة من الراحة عند أهلها في الشام.

عدنان : ألن نخبر بيت جدي في الشام؟

سرحان : طبعاً.. يجب أن نخبرهم كي يساعدونا في تغطية القصة جيداً.

سلمى : وأثناء ذلك، يمكن أن نغير البيت والحي.

عبد القادر : ألا يشغلكم إلا لفلفة الموضوع؟ لم أسمع واحداً منكم يتحدث عن غسل العار! ألا توجد في صدوركم نخوة؟ ألا توجد في عروقكم دماء تغضب، وتفور؟

سلمى : أبي.. لن تطلب منا أن نعود إلى زمن الهمجية والجهل.

سرحان : هذه العادات البدوية الذميمة، محتها المدنية الحديثة.

عبد القادر : **(منفجراً)** اخرجوا من حضرتي.. اخرجوا، واتركوني وحدي.

سلمى : **(مقتربة من سرحان)** كل هذا بلديٌّ ومبتذل. ماذا تفكر؟

سرحان : لا شيء.. سأخرج ولن أعود.

سلمى : وأنا كذلك. هل جرحك ما فعلته؟

سرحان : لا أبالي.. ولست بحاجة إلى أم.

سلمى : أوه.. كم نحن متشابهان!

عبد القادر : ألم تسمعوا ما قلت؟ اخرجوا واتركوني.

(يخرج سرحان وسلمى بخطىً وقحة ولا مبالية. تنهض ليلى، وتمضي إلى داخل البيت.)

عدنان : **(وهو يهمّ بالخروج)** هذا فظيع.. فظيع جداً! **(يتردد)** أبي.. أعدك أن أجدها، وأن أغسل العار الذي يطأطئ رؤوسنا.

(يخرج بخطىً مهلهلة)

عبد القادر : متى بدأ ذلك؟ أين كنت؟ ولماذا لم ألاحظ؟ هل تواطأ الأولاد معها! **(تعود ليلى، حاملة قنبازاً وزناراً وميتاناً.)** نعم.. هذه هي الثياب التي أرتاح فيها. ثياب العز، والأيام البهية. **(تساعده ليلى، وبكثير من الحنان، على ارتداء ملابسه)** أرأيتِ! ليس لدى إخوتك أية مروءة.. ربما عدنان، ولكنه بليد وقليل الحيلة. قولي لي يا ابنتي ماذا أصابك؟ حاولي أن

تنطقي.. **(تبذل ليلى مجهوداً كبيراً، فلا تُخرج إلا أصواتاً كالحشرجات)** هل رأيتِ أمكِ؟ **(تهز رأسها علامة النفي. بعد أن يفرغ من ارتداء ملابسه. يجلس على الأرض، وتجلس ليلى إلى جواره)** أنا لا أفهم دوافعها! كنت أحبها.. وكنت أظن أنها تعرف ذلك دون أن أبوح به.. ما الذي كان يمنعني من الاعتراف بما أحمله لها من حب وحرص.! ما الذي كان يجعلني أقسو عليها.! **(فجأة.. يميل نحو ابنته. يمسكها من كتفيها، ويهزها بقسوة)** قولي لي ماذا تعرفين؟ وكيف تصادف أن تفقدي النطق هذا اليوم بالذات؟ هل تواطأتم جميعاً كي تغرقوني بالعار؟ **(يصفع ليلى بقسوة)** انطقي.. **(يسيل الدم من فمها. تصوّت، وتهز رأسها علامة النفي)** يا الله.. إني وحيد. لو عرفتُ كم كنت أحبها، وأرغبها، لما خطر لها أن ترحل. والآن..

(ينخرط في البكاء، وتنخرط ليلى هي الأخرى في البكاء. وتدريجياً تختفي الإضاءة)

الحفيد : هناك فجوات كثيرة، لم أجد ما يسعفني على ملئها إلا خيالي. وعلى كلٍ، كنت كلما تقدمت في عملي أدرك أن ما أجمعه، وأرتبه، ليس إلا أخباراً، يتشابك فيها الحقيقي والخيالي معاً.

(١٢)

فصل استملاك الماضي

(غرفة نوم في بيت صغير وجميل، تحفّ به أشجار الصنوبر. إنه بيت ريفي ينزوي على رابية بعيدة قليلاً عن المدينة، التي تمتد تحتها وحتى شاطئ البحر. سناء وحبيب يجلسان على السرير باسترخاء. ويتبادلان نظرات ولمسات مثقلة بالهيام.)

حبيب : أكان ذلك ممتعاً؟

سناء : **(تدير وجهها بحركة ساحرة)** إني أستحي.

حبيب : هذه قشور ينبغي أن نزيلها.

سناء : لا تنسَ كيف تربيت، وكيف عشت.

حبيب : **(وهو يقبّل أصابع يدها واحداً بعد الآخر)** والآن.. سنبدأ تربية جديدة، وعيشاً جديداً. هل كان ذلك ممتعاً؟

سناء : ألا يمكن أن تتمهّل عليّ بالأسئلة؟

حبيب : هل أفهم أنه كان مخيّباً؟

سناء : **(مندفعة)** لا.. لا.. لم أجرب شيئاً كهذا في حياتي.

حبيب : **(وهو يغمر وجهه في حضنها)** أكان جديداً إلى هذا الحد؟ لماذا لا تجيبين؟

سناء : قلت لك.. إني أستحي.

حبيب : اصغي إليّ يا حبيبتي! بعد انتظار وطول شقاء، وجدنا الجنّة، التي تخصّنا. وفي الجنّة لا ثياب، ولا حياء، ولا خوف. ينبغي أن يقشّر كل منا الآخر. أن يغسله، وينقّيه، حتى نغدو عرياً صريحاً وجميلاً. إن الجنّة التي ندخلها، تعدنا بلذّات لا تنفد، ومسرات لا تُحصر.

سناء : ما أجمل كلامك! إن لمعان عينيك حين تتكلم ينفذ إلى القلب، كأنه هزة أو بلبال.

(يتمدد بين فخذيها، ويطوق ردفيها، فيما تداعب سناء شعره بعذوبة. بعد فترة، تتناهى من صوب الأشجار خشخشة قوية، فيجفلان. يتبادلان النظرات المتسائلة، ثم ينهض حبيب بخفة، ويجتاز الغرفة على رؤوس أصابعه إلى خزانة في الطرف الآخر. يفتحها، ويُخرج منها بندقية صيد. يكسرها، ويتأكد أنها ملقّمة)

سناء : **(هامسة برعب)** ماذا تفعل؟

حبيب : لا تخافي.. سأتفقّد المكان، وأعود.

سناء : لا.. أرجوك لا تخرج.

حبيب : **(وهو يرسل لها قبلة بإصبعه)** لا تقلقي.. لن أغيب إلا برهة قصيرة.

(يفتح الباب، ويخرج)

حبيب : **(يتناهى صوته من الخارج)** من هناك؟

(صوت خشّة قوية. أصوات جري وخشيش، يتلوها دوي إطلاق نار)

سناء : **(مرتعدة وهلعة)** يا رب.. أيمكن أن يكونوا قد اهتدوا إلى المكان! وربما سالت دماء.. وأية دماء! دماء أولادي، أو دماء.. **(تثب من الفراش، وتخرج من الغرفة، وهي تنادي)** حبيب.. حبيب..

حبيب : **(يتناهى صوته من الخارج)** لا تخافي.. لا تخافي.. إنه ثعلب صغير.

سناء : تعال.. أرجوك تعال!

حبيب : **(وهو يطوّق جسدها، ويعود معها إلى الغرفة)** ما لكِ؟

سناء : إني خائفة.. وركبتاي تتقصّفان تحت جسدي.

حبيب : **(وهو يضعها على السرير)** وما الذي أخافك إلى هذا الحد؟

سناء : راودتني أفكار رهيبة. حبيب.. قل لي.. إذا جاء أحد أبنائي، وحاول الاعتداء علينا، أفتطلق عليه النار؟

حبيب : أهذا ما كنت تفكرين به؟

سناء : نعم..

حبيب : تلك هي النقطة الجوهرية، التي كنت أؤجل الحديث فيها إلى حين.

سناء : وما هي هذه النقطة؟

حبيب : **(وهو يقبّل يدها، ويداعب شعرها)** ستظل هذه الوساوس تقلق بالك، ما لم ننفض الذاكرة، ونعيد ترتيبها، حدثاً حدثاً، وتفصيلاً تفصيلاً. لا يكفي أن يدير المرء ظهره للماضي، كي يمنع الماضي من ملاحقته.

سناء : وهل تظن أن ذلك ممكن؟

حبيب : قبّليني أولاً، ثم أجيبك. **(تقبّله)** سنبدأ منذ كنتِ طفلة تحبو في ذلك البيت الدمشقي. حين تتوغلين في تذكّر طفولتك، ما هي الذكرى الأولى التي تخطر لكِ؟

سناء : أوه.. ذلك صعب.

حبيب : أغمضي عينيكِ، وحاولي أن تتذكري.

سناء : **(تغمض عينيها، وتفكر. بعد فترة)** أرى أبي يدخل الدار، وأنا أجري للقائه والتمسك بساقه. رفعني عن الأرض، ثم رماني في الهواء، وتلقاني بيديه المفتوحتين، وقبّلني على خدي، ثم أنزلني إلى الأرض.

حبيب : وأنا كنت أنظر إليكِ، وأغبطكِ. والآن ما هي الذكرى الثانية التي تخطر ببالكِ.

سناء : أنتَ.. وأين كنت؟

حبيب : كنت على سطح بيتنا، أختلس النظر إلى أرض داركم.

سناء : لم أستوعب بعد ما الذي تحاوله!

حبيب : أريد أن أبعد عنك الهواجس، وأن أجعلك لي بالكلية. سنحفر بأناة حول كلّ ذكرى، كما لو أنها قطعة أثرية، ثم نعدّل ترتيبها، قبل أن نعيدها إلى مكانها. وهكذا.. مع نبش الذكريات، وعيشها من جديد، سنشعر يوماً بعد يوم، أننا كنا معاً منذ الطفولة.

سناء : أتعتقد أن ذلك ممكن؟

حبيب : سنحاول.. ما هي الذكرى الثانية التي تحضرك؟

سناء : لست متأكدة.. ربما تلك الدمية القماشية التي رافقت طفولتي. كنت أنزع المنديل عن رأسها، وأجرّدها من فستانها. كنت أحب أن أحمّمها.

حبيب : وكنتُ إلى جوارك، ألعب معكِ، وأعاونك.. سأحضر الطشت والماء.

سناء : لا تجعل الماء ساخناً جداً..

حبيب : لا.. لا.. سأبرّده أولاً.

(يبدو حبيب وسناء طفلين يلهوان بدمية وهمية، ويحمّمانها بأدوات وهمية. يلوح عليهما الانهماك والمتعة)

سناء : أكنت تحب اللعب مع البنات عندما كنت صغيراً؟

حبيب : لم يكن حولي بنات. عندما كنت في الرابعة من عمري، هاجر أبي وأخي إلى أمريكا، وتركاني مع أمي، كي لا أضيع فرصتي في العلم. كانت أمي كل شيء بالنسبة لي، لكنها في السابعة من عمري رحلت، وتركتني في كنف عمتي، التي لم تتزوج أبداً.

سناء : يا ضناي.. هل تألمت كثيراً على فراقها؟

حبيب : كانت عمتي تصرُّ على أن غيابها رحيل مؤقت، وتعهدت منذ ذلك اليوم تربيتي ورعايتي. وفي حضنها المختلط

بذكريات أمي الشاحبة، كنت ألتهم كتب المدرسة، وكل ما تقع عليه يداي من الكتب والمجلات. كانت هناك علامات غامضة تثير خيالي، وتشعل فضولي. بين شحوب أمي، وحيوية عمتي، كنت أتلمّس صورة ضائعة. هي ذكرى.. هي رغبة.. هي فورة.. لست أدري! لكني متأكد أن فيها بغيتي، وأن ما يدفعني للجري وراءها، هو قدر لا يُردُّ.

سناء : وهل وجدت ما تبحث عنه؟

حبيب : إني أجده. نعم.. أعتقد أني أجده. **(فجأة يعود إلى اللعبة)** يا حرام.. انظري، إنها ترجف وتزرقّ من البرد. ألبسيها الفستان.

سناء : أين هو؟ إني لا أجده.!

حبيب : خذي.. ها هو.

(يستمران في اللعب.. والكلمات هي البدائل الرمزية للأفعال والأشياء. يستمر المشهد فترة طويلة..
لم تختفي الإضاءة.)

(١٣)

فصل العار عند التجار

(في مخزن السيد عبد القادر الطَحّاوي. عبد القادر وبهجت العجان، وهو أخو سناء زوجة عبد القادر)

بهجت : يا زلمة.. قل شيئاً يستوعبه العقل.

عبد القادر : استوعب ما قلته لك.. لأن هذا ما جرى.

بهجت : هكذا.. تركت البيت وهربت؟

عبد القادر : نعم.. كان الماء يجري من تحتي، وأنا لا أدري.! بلا علامة أو أمارة، تركت البيت وهربت.!

بهجت : إنك تذهلني.. هذه ابنتنا، وقد أحسنًا تربيتها.

عبد القادر : أنتم ربيتم، وأنا جنيت الثمرة المرّة.

بهجت : هل بدت عليها عوارض اختلال أو جنون؟

عبد القادر : لا اختلال ولا جنون، بل هي ميول خفية للفحش والرذيلة.

بهجت : هي أم أولادكَ يا عبد القادر أفندي..

عبد القادر : وهي ابنتكم يا بهجت أفندي.. وأعتقد أن عارها يطالكم، أكثر مما يطالنا.

بهجت : طبعاً.. لا يشرّفنا ما فعلت، ولن نسكت عليه. ولكن لماذا تريد أن تضع العبء كله علينا؟

عبد القادر : لأن المنبت هو الأصل.

بهجت : حين تزوّجتها كانت فتاة نقية كحجر كريم. عُشتَ معها ضعف ما عاشت بيننا، وأنجبتَ منها شباباً وصبايا، فلماذا لم تحافظ عليها، وتمنع الفساد من التسرب إلى قلبها؟

عبد القادر : لم يبقَ إلا أن تتهمني بأني ديوث، وبأني سهّلت لها الزّنى.

بهجت : معاذ الله أن أقصد ذلك يا عبد القادر أفندي! كل ما عنيته، هو أن الزوج وأب الأولاد يتحمل عار المرأة قبل الجميع.

عبد القادر : بل يتحمل عارها من أنجبها وربّاها.

بهجت : يا عيب الشوم.. أتتهرب من حماية شرفك وعِرضك!

عبد القادر : لولا المنبت السيء لما انحرفت المرأة، أو مسّ شرفي ما يشينه.

بهجت : أأنت تتحدث عن المنبت السيء! بالله.. في صدري كلام لو قلته لك لأخجلك، ومنعك من التمادي.

عبد القادر : وأنا..! أليس في صدري كلام؟ هل أجهل أن خطف النساء أو هروبهن، هو جزء من تقاليد المنبت الطيب. دعنا نتحاشَ التجريح، وبيننا مصالح يجب أن نراعيها. أجبني بصراحة.. أتحمل عارها، وتدفنه في دمشق، أم لا؟

بهجت : بل إحمله أنت، وحاول أن تدفنه في بيروت. وعلى كلٍ لو طاوعتك، فسنغدو جرصة الشام، ويصيب أعمالنا الضرر والكساد.

عبد القادر : إذن.. لينم كلٌ على الجنب الذي يريحه. وما دامت المصلحة هي الأساس، فسأبحث أنا أيضاً عن مصلحتي.

بهجت : ماذا تعني؟

عبد القادر : أعتقد أن الاتفاقات، التي كانت تربطنا، لم يعد لها ما يسندها أو يبررها. ومنذ يومين قُدِّم لي عرض مجزٍ لشراء باخرة طحين أسترالي. الآن لم تعد توجد أية اعتبارات تمنعني من إنجاز الصفقة.

بهجت : ماذا تقول يا زلمة.؟ لقد اشترينا المطاحن الجديدة بناءً على إلحاحك. ألم تتعهد أن تشتري نصف الانتاج، مهما تقلّبت السوق، أو تغيّرت الظروف؟

عبد القادر : ليس بيننا أي اتفاق مكتوب.

بهجت : ومتى كان بيننا اتفاق مكتوب؟! إن الرجل يُربط من لسانه،

لا من قلمه.

عبد القادر : واليوم تبيَّن أننا نتكلم بلسانين مختلفين، وأن رابطة المصلحة أقوى من رابطة الكرامة.

بهجت : إنك تخرب بيتنا!

عبد القادر : وأنا.. ألم يُخرب بيتي؟ تناثرت عائلتي.. وعما قريب سأواجه العيش وحدي.. وفي سني هل أستطيع أن أحصل على زوجة لائقة، إلا إذا بسطت يدي، وغمرتها بالعطايا والهدايا.

بهجت : إذا كان تعويضٌ ماليٌ يمكن أن يُصلح الأمر، فإني مستعد.

عبد القادر : وهل تراني أتسوَّل؟ كان بيننا نسب هو الذي يكبِّل يدي، ويضيِّق الفرص أمام تجارتي. أما الآن.. فقد خطف الفجور النسب الذي كان. ولا أحد يستطيع أن يلومني، إذا حرَّرت تجارتي، ودرت وراء مصلحتي.

بهجت : أكنت تبيّت هذا الغدر منذ زمن طويل؟

عبد القادر : لم أكن أبيّت شيئاً قبل أن تُبرز أختكَ خميرتها الفاسدة.

بهجت : اللعنة على أختي.. دعنا منها والنساء غيرها كثير. إذا نقضتَ الاتفاق، فستجبرنا على بيع المطاحن، وإعلان إفلاسنا. إسمع.. إن مسألة خراب البيوت لا يمكن أن تمرّ بسهولة. إنها مسألة حياة أو موت

عبد القادر : قبل أن تهددني، اذهب واغسل عار أختكَ المصونة.

بهجت : ألا توجد فرصة للاتفاق؟

عبد القادر : يا بهجت أفندي.. لم تعد لي في الاتفاق مصلحة. إن أرباح الاستيراد مضمونة ومغرية.

بهجت : أيها الديّوث الحقير! لم تخطىء أختي إذ ركّبت لك قرنين. وإياك أن تعتقد أنك ستفلت بفعلتك.

عبد القادر : اذهب.. وغبّر في غير هذا المكان. **(منادياً)** يا سالم.. يا ابراهيم.. هاتا الشنكلين وتعالا.!

بهجت : **(وهو يهجم على عبد القادر، ويطبق بيديه على عنقه)** وهل تظن أني أخاف كلابك!
(يأتي سالم وابراهيم، تعلو أصوات الشجار والسباب. وبعد قليل تختفي الإضاءة.)

(١٤)

فصل الجنّي والجسد المسكون

ليلى : كيف أصف لك يا ابني. بعد فرار أمي، تحول أبي إلى رجل غيور وطاغية. كان يكفي أن يلمحني أنظر من النافذة، حتى ينهال علي ضرباً. حوّل البيت إلى سجن، وحوّلني إلى رهينة، يتفنن في تعذيبها. كان يرتاب بأني أخفي شيئاً، وكان لا يكفُّ يصرخ ويتساءل.. أريد أن أعرف ما الذي لجم لسانك؟! اصطحبني إلى أطباء كثيرين، ولم نستفد شيئاً. ثم بدأ يأتيني بالمشايخ والمجاورين.
(يسقط ضوء على صالون، حيث نرى شيخة، ومعها عدد من النساء والفتيات. الشيخة تدور حول ليلى، وتتفحصها)

الشيخة : بسم الله.. بسم الله، وحوطتك بالله. هذا الحسن.. لا عجب أن يطمع به الإنس والجن. بسم الله وقوة أوليائه.. جئنا أيها الجنّي الفاجر، فتجنب الهلاك، واخرج من هذا الجسد الطاهر. **(آمرة الجوقة)** احصروه، وضيقوا صدره!

الجميع : **(الأداء يشبه أداء تلاميذ الكتاتيب)** أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. بسم الله الرحمن الرحيم.

الشيخة : قُلْ أعُوذُ بِربِّ النَّاسِ.

الجوقة : قُلْ أعُوذُ بِربِّ النَّاسِ.

الشيخة : مَلِكِ النَّاسِ.

الجوقة : مَلِكِ النَّاسِ.

الشيخة : إلهِ النَّاسِ.

الجوقة : إلهِ النَّاسِ.
الشيخة : مِن شَرِّ الوَسْوَاسِ الخَنَّاسِ.
الجوقة : مِن شَرِّ الوَسْوَاسِ الخَنَّاسِ.
الشيخة : الذي يُوَسْوِسُ في صُدورِ النَّاسِ.
الجوقة : الذي يُوَسْوِسُ في صُدورِ النَّاسِ.
الشيخة : من الجِنَّةِ والنَّاسِ.
الجوقة : من الجِنَّةِ والنَّاسِ.
الشيخة : صَدَقَ اللّه العَظِيم.
الجوقة : صَدَقَ اللّه العَظِيم.
الشيخة : الآن.. طهّروا المكان، حتى يفرَّ الأشرار من الإنس والجان.

(تبدأ المريدات بإشعال البخور في المجامر، وكذلك أعواد الطيب من كافور ومسك وعنبر وسوى ذلك من المواد، التي تُصدر دخاناً ملوناً يُعطّر ويهيّج معاً. يدرن بالمجامر فيما يشبه الحلقة، ومعهن ليلى، على إيقاع «اللّه حيّ..»، تستمر الحلقة في الدوران، فيما تتسع دائرتها. تمسك الشيخة ليلى، وتجرها إلى الوسط، تساعدها اثنتان من المريدات. يستمر الذِّكر مع تصاعد في الإيقاعية. تجرّد الشيخة ليلى من ثيابها، ماعدا القطع الداخلية التي لا تكاد تستر جسدها. تُخرج الشيخة سوطاً مصنوعاً من شرائط الجلد والحرير، وتومئ للمريدتين، كي تمسكاها جيداً. في البداية ضربات ناعمة كالمداعبة، ثم تشتد شيئاً فشيئاً. وحين يعلو صراخ ليلى، تعلو أصوات الذِّكر كي تطغى عليه)

الشيخة : **(وهي تبدأ الضرب)** ارحل أيها الجنّي الفاجر، وتحرّر أيها الجسد الطاهر. اللّه حيّ.. ارحل أيها الجنّي الفاجر، وتحرّر أيها الجسد الطاهر. اللّه حيّ..

(حين ترتفع حمّى الذِّكر، ويغدو صراخ ليلى استغاثات مبحوحة، يتوقف المشهد لحظات معبأة بحشرجات المريدات،

وعويل ليلى، التي يبدو أنها تعاني آلاماً لا تطاق)

الشيخة : أبشري يا ليلى.. يا أخواتي المؤمنات الطاهرات كافأنا اللّه برحمته. رأيت الجنّي ينسل من دِبرها كالكلب الأجرب، ساتراً عورته، وهارباً من الحضرة. اهدئي يا ليلى.. واتركي الشكر والنعمة يفيضا على لسانك. أعطها ماءً!

(تناول إحدى المريدات ليلى كأساً من الماء. تشرب ليلى قليلاً، وتمسح دموعها. تحاول أن تتكلم، فلا تُخرج إلا أصواتاً مقطّعة ومبهمة)

ليلى : آه.. آع.. آععع...ع..

(يختفي المشهد.)

ليلى : حين تأكدت الشيخة أني لم أستعد القدرة على الكلام، فار غضبها، واحمرّت عيناها. أمسكت مريدتان رأسي، وفتحت الشيخة فمي عنوة. سحبت لساني، وأخذت تطليه، وتفركه بالتوابل الحارة والكاوية. ثم استلّت دبوساً راحت تخزُّ لساني به، بضربات عصبية، ودون نظام. ومع الدم الذي كان يسيل، كان صراخي يفيض أنيناً وفحيحاً.. والذِّكر مستمر، والمريدات يدرن في الحلقة، هاتفات اللّه حيّ.. اللّه حيّ.. تلك الليلة، لامستُ الموت، وبقيت أياماً أتوجع من جروحي وقروحي.

(١٥)

فصل الحكاية النافلة

الحفيد : بين أهل أمي، كان خالي سرحان يسبب لي ما يشبه الحكّة. فأنا أنفر من الحوار معه، وهو في الوقت نفسه، لا يبدو في هذه الحكاية التي أتابعها، إلا مثل ظلٍ غامض يصعب تحديده. الآن.. هو مَلِك اللّذة في المدينة. لديه سلسلة من البيوت السرية، والأوكار، ونوادي القمار، والشقق الخصوصية، وما لا يعرفه إلا رجاله وسماسرته. وهذا التحول الكبير، هو بحد ذاته رواية مستقلة. ولكنها في الواقع رواية نافلة، ولا تمدّنا إلا بمعلومات هزيلة.

▫ **توثّقت الصلة بين الخال والبوري.**

(بقعة ضوء على البوري وسرحان)

سرحان : البضاعة جاهزة يا معلم.

البوري : أمتأكد أنك سَلِمتَ من الرقيب والراصد؟

سرحان : من الجنوب إلى بيروت، لم يبصرنا إلا الليل وبضع نجوم نائمة.

البوري : يشهد الله إن مهارتك وجرأتك تجاوزتا كل تصوراتي. منذ الآن أنت شريك يعتز المرء بشراكته.

سرحان : أما حان الوقت كي نضرب الضربة الكبرى في مصر؟

البوري : نعم.. وجدت تدبيراً يعجبك. ولكن قبل ذلك ألا تستطيع

أن تزيح لنا أخاك من المرفأ؟ يوم السفر ينبغي أن يكون المرفأ أرضاً مفتوحة لنا.

سرحان : إذا كان أخي هو العقبة، فسأزيحه.

البوري : أتستطيع؟

سرحان : نعم. ما أخبار سونيا؟

البوري : هل اشتقت إليها؟ سألتْ عنك، وستجدها حيث تعمل.

▫ **كان خالي غامض الارتباطات.**

(بقعة ضوء على قائد في الدرك وسرحان)

سرحان : حان الوقت كي تنظف لنا المرفأ.

قائد الدرك : ماذا تطلب؟

سرحان : أولاً أريد أن تنقل أخي إلى الإدارة.

قائد الدرك : حقاً هذا بغل، وعناده مزعج. لا يعرف كيف يستفيد، ولا يترك الآخرين يستفيدون. صدّع رأسي بالتقارير وكشوف الفساد.

سرحان : إذن.. خير له ولنا أن تضعه تحت رقابتك.

قائد الدرك : طيب.. سأفعل.

سرحان : ويوم الإبحار، أرجو أن تبعد تلك العيون الفارغة، والألسنة الطويلة التي تعرفها. أنت تعلم.. هذه الصفقة مصيرية يا جودت بك.

قائد الدرك : لكن ما الذي يجعلني أثق بك؟

سرحان : الجواب في دخيلة نفسك. والتكرار لا يليق بالرجال، ولا يخلو من الأخطار.

قائد الدرك : غلبتني.. فيك سحر يا سرحان. فيك شيء شيطاني لا يقاوم.

(ينطفئ الضوء فوق البقعة)

الحفيد : وسافر سرحان والبوري تلك السفرة الكبرى. انقطعت أخبارهما فترة طويلة، وثارت حولهما شائعات كثيرة. مرة قيل إنهما سجينان في ليمان مصر. ومرة قيل إنهما قتلا في ميناء أثينا. ولكن.. بعد اللغط والشائعات، عاد الخال فظهر في بيروت سالماً معافى. وأما البوري فقد اختفى في ظروف غامضة، لم يكشف عنها إنسان حتى الآن.

▫ **وسرحان ما يزال متشبثاً ببراءته حتى اليوم.**

(بقعة ضوء تسقط على سونيا وسرحان)

سونيا : أنت! فعلاً الذين استحوا ماتوا!

سرحان : لا أستطيع أن ألومكِ مهما قلتِ.

سونيا : ولماذا لا تلومني! أما كان ينبغي أن أستقبلك بالفقش والرقص!

سرحان : ليتك تهدئين قليلاً.

سونيا : فقدتُ خير رجل عرفته، وتطلب مني أن أهدأ! **(وهي تبكي)** آه يا حوتي.. يا سندي وأمني.. هل عرفت قبل أن تموت، أيّة أفعى كنت تصاحب! هل تحسّرت! هل حملت هذه المرارة، وأنت ترحل إلى الموت! في أي أرض قتلته؟ وفي أي فلاة دفنته؟

سرحان : سامحكِ الله.. كان صديقي ومعلمي، وفجيعتي بغيابه لا تقل عن فجيعتكِ.

سونيا : ولكن هو الذي مات، وأنت الذي نجوت، وفي ظروف لم يكشف غموضها أحد.

سرحان : **(يجثو إلى جوارها)** اسمعي يا سونيا. أنا لست مديناً بتقديم شهادة أمام كائن في هذه الدنيا. والوحيد الذي أريد أن أبرّر نفسي أمامه هو أنتِ. **(يُخرج من جيبه سلسالاً ذهبياً، عُلّقت في طرفه صفيحة ذهبية بيضوية، خُطّت عليها كلمة الله)** أتذكرين.. اسم الله وهذا السلسال، الذي كان لا ينزعه من رقبته أبداً.

سونيا : نعم.. هذا هو. دعني ألمسه، وأشم رائحته.

سرحان : انتظري.. واسمعيني جيداً. أقسم لكِ يا سونيا إني بريء من دم البوري، وإن مصيري ما كان ليفترق عن مصيره، لولا بقية من الحظ. **(لحظة صمت.. ينهض، يناولها السلسال)** يمكنك أن تحتفظي بالسلسال إذا شئتِ.

سونيا : أينبغي أن أصدقك! أحسُّ أني وحيدة. لم يعد لدي رجلٌ يحميني، ويريح ذراعه الثقيلة على كتفي.

سرحان : جئت كي أودعكِ قسمي، وأتعهد بحمايتكِ كما كان يفعل الحوت.

سونيا : لا أدري.. إن الشكوك تعكّر القلب.

سرحان : ليس لدي إلا اليمين الذي لم أحلفه إلا لكِ. وحين يصفو قلبك ابحثي عني.

(يهم بالخروج، فتمسكه)

سونيا : انتظر.. لا شك أني امرأة بائسة وحمقاء. تعال.. تعال.. أريد أن نتحدث. ماذا تشرب؟

سرحان : **(يبتسم، ويجلس)** لا شيء..

(تنطفئ الإضاءة فوق البقعة)

▫ **وأراد خالتي سلمى شريكة..**

(بقعة ضوء سرحان وسلمى)

سرحان : لم أشتق لأحد سواكِ يا أخت.

سلمى : وأنت أيضاً لم تغب عن البال كثيراً.

سرحان : ألم تعودي إلى البيت بعد تلك الليلة؟

سلمى : ألم نتعاهد أن يكون الخروج تلك الليلة قطيعة بلا رجعة! لا.. غيّرت حياتي تماماً. محوت اسم أهلي، وانتسبت إلى زوجي، وبدّلت الوسط الذي نعيش فيه.

سرحان : علمت أن الوسط الذي تعيشين فيه، يكاد يكون فرنسياً.

سلمى : هم نخبة من الفرنسيين، وبعض الظرفاء من الأعيان والساسة.

سرحان : هذا هو الوسط الذي أحتاجه. نحن يا أخت متشابهان. وأعتقد أننا نستطيع إذا تعاونا، أن نغدو ملكين، يتلاعبان في الخفاء بالمصائر والثروات.

سلمى : ماذا تعرض علي؟

سرحان : أن نكون شريكين في تجارة اللّذة.

سلمى : أف.. تجارة! ألم تجد كلمة أكثر سوقية منها؟

سرحان : ماذا تقترحين؟

سلمى : ابتعد عن التجارة، وما يذكّر ببيع وشراء اللحم. سمّه مثلاً.. هيكل اللذة، مع شعائر مبتكرة لأهل الذوق والتجربة.

سرحان : كنت أعلم أنكِ الشريك الذي أحتاجه.

سلمى : وهل حددت نصيباً لهذا الشريك؟

سرحان : لا أعتقد أننا سنختلف. إن شئت نسبة، أو حصة..

سلمى : **(تقاطعه باشمئزاز)** هل عدنا إلى سوقية التجارة والتجار. قلت.. سنكون ملكين. وقد أعجبني التعبير، وأثار حماستي. سأكون الملكة، وستكون الملك.

سرحان : حقاً يا أخت.. حقاً.. إننا متشابهان.

سلمى : نعم.. إنك أحياناً تشبهني. وهذا الاتفاق ينبغي أن يظل سراً، لا يطّلع عليه مخلوق.

سرحان : لكِ ما تشائين.

(تنطفئ الإضاءة فوق البقعة.)

الحفيد : وازدهرت أعمال الملكين. لم تكن تنمو نمواً عادياً. بل كانت تزدهر كالانفجارات المفاجئة. وهنا يمكن أن يذكر المرء، وبصورة هامشية، أن فضل الخالة في هذا الازدهار كان بيّناً، وربما فاقَ اجتهاد الخال ومواهبه.

(١٦)

فصل العري والدهشة

(في بيت حبيب الشمالي. سناء والمرأة، ومن الفونغراف تنبعث أغنية ماري جبران «أصل الغرام نظرة»)

المرأة : أليست تلك هي السعادة؟

سناء : سأكذب لو قلت إني لست سعيدة. لم أتخيل أبداً، أن الإنسان يمكن أن يذوق مثل هذه المشاعر والمتع.

المرأة : نعم.. إنه يعرف كيف يجعلنا نفور، ونفيض، ثم نتلاشى في غيبوبة النشوة.

سناء : كالمعلم الماهر، أو كالساحر يوقظ الجسد خلية خلية، وعضواً عضواً، فأحسُّ أني أتعدَّد، وأغدو حشداً من الرغبات والآهات. آه.. يكفي أن أستعيد اللحظة في خاطري، حتى يقشعرُّ ظهري.

المرأة : نعم.. إن ذلك مدهش، ولعلنا كنا نستحقه منذ الصبا.

سناء : ماذا هناك إذن؟ أشعر أنك تخفين كلاماً تحت لسانك!

المرأة : لا.. لا تظني أني نادمة. وما فعلناه كان هو الخيار الصائب.

سناء : ما الذي يقلقك إذن؟

المرأة : هو شيء غامض، لا أعرف كيف أصفه! إن اندفاعه، أو شغفه، أو نهمه.. نعم.. إن نهمه هو الذي يقلقني، ويخيفني.

سناء : وهل يخلو الحب الحقيقي، من بعض النهم!

المرأة : معكِ حق.. ولكن أحياناً أحس أن المسألة تكاد تتجاوز الحب. أخافتني الشراهة التي ينبش بها الماضي، كي

يستملكه، ويضيفه إلى الحميميات الأخرى التي يجرِّدكِ منها.

سناء : الله.. الله.. هل بدأنا نتبادل الأدوار؟

المرأة : لعل من المفيد أن تظل واحدة منا مبصرة وحذرة. ماذا تشعرين وأنتِ ترينه ينتزع ذاكرتكِ لِبنة لِبنة.

سناء : غالباً ما يبدو الأمر لعباً وتسلية.

المرأة : أهذا ما أحسست به حين رويت له، أن أمك كوت فخذيكِ الصغيرين بالنار، حتى تكفِّي عن التبوّل في الفراش؟ ألم تشعري أن خلية حية انتزعت من نسيجها، وظلّ مكانها أجوف.

سناء : لمّا رويت له الحادثة، انهمر على فخذيَّ ينفخ عليهما، ويقبّلهما. وكانت شفتاه وأنفاسه تدغدغني، وتدفعني إلى الضحك.

المرأة : وحين أخبرته عن مشاهد الحمامات وأسرارها.. وعن التعرّي في الفراش.. وصرير السرير تحت ثقل الأب والأم..

سناء : نعم.. أحياناً كنت أشعر بالحرج.. وأحاول التملّص من إلحاحه.. ولكنه كان يعرف دائماً، كيف يغالب حرجي، ويغمرني بفيض من التعاطف والدفء.

المرأة : فتندفعين كالمسحورة، كي تنبشي أدق التفاصيل، وأبعد الأسرار، وتخبريه بها. حتى تلك الليلة الرهيبة، التي لم يعرف ما جرى فيها سوانا.. تلك الليلة، التي دفعتك فيها غواية مجنونة، كي تلعقي بلسانك بلّورة القنديل الأسطوانية، التي احمرّت من شدة اللهب.. حكيتِ تفاصيلها دون ارتباك أو خجل.! وجنون الليلة التي خطف فيها أخوك عروسه، لم تتركي منه تفصيلاً! ألا تشعرين بعد هذه الاعترافات، أنكِ تبوخين، وتصبحين هشة وجوفاء؟

سناء : أشعر أن وحدتي تتلاشى، وأني خفيفة كريشة. ومع هذا لم أفهم حتى الآن ما الذي يضايقك، أو يخيفك.

المرأة : (بعنف) إنه يترح داخلك، ويستحوذ عليكِ. أخشى ألا يبقى لك قوام، وألا تبقى لكِ دخيلة أو سريرة.

سناء : ألم تخبريني مرة، أن الحب الفعلي، هو أن يذوب العاشقان في عناقٍ، يتعذر فيه أن يميز الواحد نفسه عن الآخر.

المرأة : نعم.. في لحظة من اللحظات.. أو في وقت من الأوقات.. ولكن نهمه غريب، ويتجاوز العناق. إنه يستولي ببراعة ودأب على كل الحميميات، التي تجعل المرء يحسُّ أن له حياته التي تخصه، وأنه يستطيع أن يقول «أنا». بدأ بالذاكرة، وانتقل إلى الأفكار، والعادات الصغيرة. يرافقكِ حين تستحمين. ويدخل معكِ إلى المرحاض، كي يراكِ، ويشمّ روائحكِ. وحتى حين تأتيك الدورة، يشاطرك انشغالك، ويبدِّل الخرق معكِ. لقد غدوتِ مجرد جسدٍ، لا يزيِّن عريه حياء أو خفاء.. وأحياناً أحسُّ أن نهمته لن تشبع قبل أن يلتهمكِ، ويمتصك في كيانه.

سناء : لا أشعر بالخوف. وهواجسك لم تقلقني، بل جعلت الرعشة تتسلق ظهري. ليكن.. لن أخجل من عريي. هذا العري الذي حلمت به طوال عمري. عريٌّ مدهش ولذيذ، شبيه بالاسترخاء والنسيان وبداية الحياة. ربما نزحني من الداخل، ولكن جعلني أشعر أن كل ما فيَّ، حتى جلوسي في المرحاض، مدهش وجميل. ليس فيَّ ما أستحي منه، ليس فيَّ ما أواريه. إني خفيفة كالريشة.

المرأة : وهل ستظلين تلك الريشة الخفيفة، إذا ما تحوّل ذلك النهم إلى سجن، وغيرة خانقة؟

سناء : لماذا تريدين أن نبدِّد سعادة اليوم، بالتطيّر، والافتراضات

السيئة؟ أتعلمين.. إن لعبة الذاكرة التي نتسلى بها كل ليلة، خفَّفت ثقل الماضي، وساعدتني على تجاوز الألم، الذي خلّفه فراق عائلتي.

المرأة : لا أريد أن أحبط سعادتك. ولكن سأظل يقظة وحذرة.

سناء : آه يا نفسي.. دعيكِ من الحذر، واسترخي في هذا المجرى الدافئ والمدهش.

(بعد قليل، يدخل حبيب معتكر الملامح، فتنهض سناء خفيفة، وتستقبله معانقة)

سناء : إنك تأتي مبكراً.

حبيب : أتلومينني إذا اشتقت إليكِ؟

سناء : أرى الهموم تغلب الشوق في وجهك.

حبيب : لا شيء.. إني أفكر ببناء سورٍ حول البيت. سور متين، وأعلاه مغطىً بالمسامير وكسرات الزجاج. عمّا قليل سيأتي حنا المعماري كي يعاين، ويأخذ القياسات.

سناء : (يشحب وجهها) أخبرني.. ما الذي جعلك تتخذ هذا القرار؟

حبيب : كان ينبغي أن أبني السور منذ سكنّا هذا البيت. (**وهو يضمُّها**) ولكن لهفة الحب وضرورات العمل، جعلتني أماطل، وأؤجل.

سناء : واليوم.. ما الذي دفعك للتعجيل ببنائه؟

حبيب : (مراوغاً) لا شيء.. لم يكن لدي عمل كثير.

سناء : بيننا اتفاق على الصراحة، وعدم المراوغة.

حبيب : طيب.. قيل لي إن رجلاً غريباً مرَّ بالسوق، وكان يسأل عن بيتي.

سناء : هل تعتقد أن الرجل واحد من أهلي؟

حبيب : أظن أن الرجل يريدني، وأن الحادثة عابرة. وعلى كل هاهو المعلم حنا. وحين نبني السور لن تبقى هناك مفاجآت أو

مخاطر.

(يظهر المعلم حنا، ومعه عامل يحمل عدّة القياس. يقبّل حبيب سناء على رأسها، ويهمّ بالخروج لاستقبال المعماري)

سناء : **(بحزم)** لا أريد أن تبني هذا السور.

حبيب : لماذا؟ إنه احتياط لا يضر.

سناء : لن تحوّل البيت إلى سجن. ولم أتبعك لكي أنتقل من سجن إلى سجن.

حبيب : إنه مجرد سور.

سناء : وأنا لا أريد هذا السور. سيظل البيت مفتوحاً على الوادي والغابة والبحر.

حبيب : **(متضايقاً)** كما تشائين.. سأطلب من المعلم حنا أن يؤجّل المشروع بعض الوقت.

سناء : **(بحدّة)** أخبره أننا ألغينا الفكرة، وأننا لا نحتاج هذا السور.

حبيب : طيب.. دعيني أتصرف.

(يخرج..
وتختفي الإضاءة.)

(١٧)

فصل النسيان والبدء من جديد

(يظهر عبد القادر وابنه الدركي عدنان)

عدنان : تأكد أني لم أهمل وعدي، وأني لم أتوقف عن البحث عنها.

عبد القادر : قوّاكَ الله يا ابني. الأيام تداوي، وأنا كدت أنساها.

عدنان : لا أعتقد أن أحداً منا يستطيع أن ينسى تلك الفظاعة. نبشتُ بيروت كلها، ولم أجد لها أثراً. ولكن أعدك أني لن أوقف هذه المطاردة، حتى أمسكَ بها.

عبد القادر : ألا تذكر.. يوم رحلت، تركت لنا تقول.. اعتبروني ميتة. ولعل هذا هو الصواب، أن نعدّها بين الأموات، وأن نواصل حياتنا. إن عجوزاً مثلي لا يستطيع أن يواصل حياته، دون امرأة تعتني به، وتسنده.

عدنان : ماذا تنوي؟

عبد القادر : وجد لي أقربائي امرأة مناسبة، تداوي جرحي، وتجمّل آخرتي. ولكنني كنت أؤجّل، وأتريّث، راجياً أن تجد أختك ليلى نصيبها.

عدنان : ربما كان نصيب ليلى جاهزاً.

عبد القادر : **(بفرح ودهشة)** ومن هو؟

عدنان : إنه صديقي.. شامل السيروان.

عبد القادر : هذا شاب لا يُعاب. ما الذي جعلك تظن أنه يريدها؟ هل أخبرك ولو تلميحاً، أنه يريدها؟

عدنان : لا تهم التفاصيل. أعتقد أن الشاب يريدها. ولولا التهيّب

لتقدَّم، وطلب يدها.

عبد القادر : أهو يعرف عيبها؟

عدنان : طبعاً إنه يعرف علّتها، وما تعانيه.

عبد القادر : إذن.. ماذا ينتظر؟ دعه يتقدم، كي نستر البنت، ونضمن مستقبلها. وإذا كان عسر الحال، هو الذي يجعله يتردد، فإني مستعد أن أبسط له يدي.

عدنان : أتريد أن تقدم له رشوة!

عبد القادر : لا تتفلسف يا عدنان.. من يتحدث عن الرشوة! قصدت أن أقدم له مبلغاً، يرتِّب به شؤونه، كي يتهيَّأ للخطوبة والزواج.

عدنان : وأنتَ يا أبي.. هل ستتزوج قبل ليلى أم بعدها؟

عبد القادر : إذا تيسرت أمور ليلى، فسأنتظرها حتى تتزوج. وأنت.. لماذا لا تبحث عن نصيبك، وتكمل نصف دينك؟ ألا تعلم أن الزواج سُنَّة، وأن بعض الصحابة تزوَّج، وهو على فراش الموت، لأنه خشي أن يلقى ربه، وهو أعزب.

عدنان : أريد أن أسألك يا أبي.. إذا وفّقني الله، وعثرت على أمي، فماذا تطلب مني أن أفعل بها؟

عبد القادر : ماتت أمُّكَ بالنسبة لي يا عدنان. وأنصحك أن تترك هذا الأمر، وأن تنشغل بإصلاح أحوالك، وبناء مستقبلك. أتعلم أني اشتقت لأخيك؟ طبعاً لولا نجاحه، لما غفرت له، ولما تحملت الجرح الذي سببه جحوده.

عدنان : لم يكن أخي واحداً منا في يوم من الأيام.

عبد القادر : بل هو منا، ولعله الأبرع بيننا.

عدنان : أتسمي ما يفعله أخي براعة!

عبد القادر : أليست براعة أن ينتزع شاب صغير من براثن الحياة، وفي فترة قصيرة، هذه الثروة وهذا الجاه. هذا أخوك يا عدنان، وأتمنى أن تصلح أمورك معه، وأن توثِّق صلتك به.

عدنان : إننا من عالمين مختلفين. ولكن من أجل خاطرك.. سأحاول.

عبد القادر : وعلِّم صديقك أن يضرب الحديد وهو حامٍ. دعه يتغلب على التردد، ويتقدم.

عدنان : أما بالنسبة لأمي.. فإنك تقترح أن أنساها.

عبد القادر : أف.. ما أبرد دمك، وما أشد عنادك! نعم.. إنسها، والتفتْ لبناء مستقبلك.

(تختفي الإضاءة.)

(١٨)

فصل المكاشفة والمهمة الخفية

(في الصالون ليلى وشامل.)

شامل : أين عدنان؟

(تؤدي بيديها ورأسها بضع إشارات، تجيب بأنه يأخذ قيلولة قصيرة. يرين صمت. يبدو عليهما الارتباك، وهما يتخالسان النظر)

شامل : أتمنى ألا تظني، أني أستغل الصدفة التي جمعتنا على انفراد. فأنا أنوي مفاتحة عدنان اليوم بالذات. ولكن ربما كان ضرورياً أن تعرفي عمق الحب، الذي يملأ جوانحي.

(تزوغ عيناها، ويبدو الاضطراب على وجهها، لا يفهم شامل ما يحدث، فيتابع مندفعاً)

لا أحسن تزويق الكلام، ولا أعتقد أن لدي الموهبة للتعبير عن مشاعري بكلمات حلوة، تهتز لها أوتار القلب. في داخلي فيض من المشاعر الغنية والمدهشة، ولكن الدركي الذي تربّى على الخشونة، لا يعرف كيف يجد التعبير الذي يناسب مشاعره. ولذا سأقول بكلمات بسيطة، ودون تزويق، إني أحبك يا ليلى، وأريد أن تقاسميني حياتي، حلوها ومرّها.

(تزداد أمارات الاضطراب على وجه ليلى. تتناول من ركن الصالون سبورة متوسطة الحجم، مع طبشور وممحاة. يبدو أنها تستخدم السبورة للتفاهم مع الآخرين. تنصبها في مواجهة الجمهور)

ليلى : **(تكتب على السبورة)** إن الحب يخيفني، ويثير اضطرابي.

شامل : لماذا؟ وكيف يمكن أن يكون الحب مخيفاً؟

ليلى : **(تمحي العبارة الأولى، وتكتب)** لا أدري.. ذلك يصعب شرحه.

شامل : إذا كان كلامك ينطوي على جواب، فأرجو أن تكوني أوضح.

ليلى : **(تمحي العبارة السابقة، وتكتب)** هل أنت متأكد أنك تريدني، وأنك ستتحمل العيش معي؟

شامل : أتسألينني إن كنت أريدكِ! لا أستطيع أن أمتحن رغبتي في العيش معك أكثر من ذلك. لولا حبك، لبددت أيامي في الفوضى والمرارة.

ليلى : **(تمحي العبارة السابقة، وتكتب)** ألا يُحتمل أن تكون الشفقة بعض دوافعك؟

شامل : لا.. لا تحدثني عن الشفقة. أحببتك قبل المصاب، ولم يفتر حبي بعده. بل على العكس، شعرت أننا سنزداد توادداً، حين سنتقاسم المصائب والأرزاء.

ليلى : **(تمحي العبارة السابقة، وتكتب)** لم يُخطئني التقدير. كنت دائماً أجدكَ شهماً وكريماً.

شامل : دعينا من المراوغة.. ما يُملي علي إجاباتي هو الحب، لا الشهامة. وأعتقد أن من حقي عليكِ، أن توضحي شعورك نحوي. هل تبادلينني بعض حبي ومشاعري؟

ليلى : **(تكتب، وهي ترتعش)** إن الحب يخيفني. **(يزداد ارتعاشها)** هذا صعب.. هذا صعب..

شامل : وما الصعب فيه؟ ماذا تخفين؟ هل يعني هذا أنك تجيبين بالرفض؟

ليلى : **(تكتب، وهي ترتعش)** لا.. لا.. أريدك. ولكن الخوف

يشلّني.

شامل : تريدينني! ولكن الخوف يشلّك. لماذا الخوف؟ وما هي هذه الأسرار الغريبة، التي تباعد بيننا؟

ليلى : **(تمحي العبارة السابقة، وتكتب)** الآن.. لا أستطيع أن أوضح لك شيئاً. أتكتم السر؟

شامل : أدفع حياتي، ولا أخون سرّاً أودعتِهِ لدي.

ليلى : **(تمحي العبارة السابقة، وتكتب)** هناك مهمة ينبغي أن تنجزها، كي ينجح ارتباطنا، وتتبدّد هذه الأسرار التي تقلقنا.

(يظهر عدنان في عمق الصالون، حين يراهما يتراجع، ويتخفّى وراء عمود. يراقبهما خلسة، ويسترق السمع)

شامل : سأنفذ أية مهمة تأمرين بها.

ليلى : **(تمحي العبارة السابقة، وتكتب)** ينبغي أن تنفّذها وحدك، وألا يطّلع على أمرك غريب أو قريب.

شامل : لاتخافي.. سأنفّذها وحدي. ولن يطّلع مخلوق على سرّي.

ليلى : **(تمحي العبارة السابقة، وتكتب)** ستذهب إلى أمي، وتقول لها.. إن ابنتك ليلى، مازالت تعاني من انعقاد لسانها، فمتى تحرّرينها من الرعب، وتفكّين عقدة لسانها؟ احفظها بسرعة، كي أمحيها.

شامل : **(مردداً)** ستذهب إلى أمي، وتقول لها.. إن ابنتك ليلى، مازالت تعاني من انعقاد لسانها، فمتى تحرّرينها من الرعب، وتفكّين عقدة لسانها؟

ليلى : **(تمحي العبارة السابقة، وتكتب)** وقل لها.. إن ليلى مازالت تحبّك. وإن لم تصلحي أمرها، فسيكون زواجها محنة.

شامل : **(يكرر)** وقل لها.. إن ليلى مازالت تحبّك. وإن لم تصلحي أمرها، فسيكون زواجها محنة.

ليلى : **(وهي تمحي بسرعة، ثم تكتب)** هل حفظتَ الرسالة؟

شامل : نقشتها في ذاكرتي. ولم يبقَ إلا أن تخبريني أين أجدها؟

ليلى : **(تمحي العبارة السابقة، وتكتب)** بيت حبيب الشمالي، في أعلى جونيه.

شامل : بيت حبيب الشمالي، في أعلى...

ليلى : **(تكتب بعنف)** اخفض صوتك!

شامل : سأخفضه.. سأخفضه.. بيت حبيب الشمالي، في أعلى جونيه.

(يخرج عدنان من مكمنه، ويقترب منهما)

عدنان : هل جئت منذ زمن طويل؟ لماذا لم تخبريني يا ليلى؟

(تنهمك ليلى في تنظيف السبورة، ويكادان لا ينجحان في إخفاء ارتباكهما)

شامل : لم أرغب أن تفسد قيلولتك.

عدنان : استرخيت قليلاً، ولم أنم. قل لي كيف وجدت تبادل الحديث عبر السبورة؟

شامل : **(وليلى تخفي وجهها بيديها حياءً)** كان ممتعاً ومشوقاً.

عدنان : وهل تفاهمتما حقاً؟

شامل : أعتقد أننا تفاهمنا. ألم نتفاهم يا ليلى؟

(تغض ليلى طرفها، وتبتسم)

عدنان : ألا نستحق بعد هذا التفاهم، فنجان قهوة؟

(تومئ ليلى برأسها موافقة، وتخرج)

عدنان : ما أطيب قلبها! أين سنسهر الليلة؟

شامل : عمرك أطول من عمري. جئت كي أرتب معك سهرة اليوم. هناك قضية هامة، أريد أن أفاتحك بها.

عدنان : وهناك نبأ سار، أريد أن أزفّه لكَ.

شامل : إذن ستكون سهرتنا عامرة.

عدنان : ومصيرية أيضاً!

(تختفي الإضاءة.)

(١٩)

فصل الأخوين في متاهة الأم

(في مقر سرحان، وهو مزيج من المكتب والمخدع، أنيق دون إسراف أو بذخ، وتظهر عليه لمسات من ذوق شخصي وخاص. سرحان وعدنان)

سرحان : **(بتعالٍ سخيّ)** أهلاً يا عدنان! مرّ دهر لم نلتقِ فيه.

عدنان : نحن لم نغيّر، ولم نتغيّر، ولو شئت لالتقينا. أما أنت فقد أرهقني البحث والسؤال، حتى وجدت طريقي إليك.

سرحان : أعمالي يا عدنان، تقتضي الحذر. وأن تكون لي مكاتب عدة، كل منها مختلف في موقعه وطابعه.

عدنان : أعرف أن أعمالك واسعة، وأنك حققت أخيراً ما كنت تطمح إليه.

سرحان : لا تغرّنّك المظاهر. ما زلت في البداية، وعلي أن أنجز الكثير، قبل أن يرضى طموحي.

عدنان : لا أستطيع إلا أن أتمنى لك التوفيق. ولولا أن لدي موضوعاً ملحّاً، ويخصّنا جميعاً، لما أزعجتك، وتطفّلت على وقتك.

سرحان : لا تكن متحفّظاً إلى هذا الحد. نحن في النهاية أخوة.

عدنان : أتشعر فعلاً أن الدّم يحنّ إلى الدّم، وأن روابطنا العائلية لم تنقطع.

سرحان : لا أحب تهافت العواطف، ومبالغاتها الريفية. نحن عائلة واحدة، ولكن لكل منا اهتمامات مختلفة. ما هو الموضوع الذي تجده ملحّاً، ويخصّنا جميعاً؟

عدنان : اعلم يا أخي أني، وبعد طول بحث وتنقيب، عرفت بالصدفة أين تُقيم أمّنا.

سرحان : أما زلت تدور في متاهات تلك الحكاية، التي أبلاها الزمن؟

عدنان : هذه أمّنا.. والعار لا يُبليه الزمن.

سرحان : شعارات القبضايات وأهل البسطة. كانت أمّنا، واختارت أن ترحل عنا. لم نكن صغاراً نحتاج رعايتها، ولم تكن عبدة ينبغي ردعها وتأديبها.

عدنان : ماذا تقول يا سرحان؟ الأم هي العرض، وهي سمعة البيت. ومهما أخفيت الأمر، فإني أحسّ منذ رحيلها، وكأني مريض بالجُذام.

سرحان : وماذا تنوي أن تفعل، كي تبرأ من الجُذام؟

عدنان : جئت أتشاور معك، كي نتّخذ القرار سوية.

سرحان : أتريدنا أن نضع خطة للذبح؟

عدنان : أريد أن نفعل شيئاً، نسترد به سمعتنا وكرامتنا.

سرحان : اصغ إلي يا عدنان! الشيء الذي يحفظ سمعتنا وكرامتنا فعلاً، هو أن ننساها. وأن لا نوقظ الحكاية بالدّم والنمائم.

عدنان : أهذا رأيك النهائي؟

سرحان : طبعاً.. إني أعمق منك تجربة، يا عدنان. وما نصحتك به، هو الرأي الواقعي والسليم. أتعلم.. مرة حلمت أنك تتخلى عن وساوس الاستقامة والطهر والحميّة، وأنك تعمل معي، وتكون ساعدي الأيمن. ولو كنتَ عاقلاً، لفكرتَ جدّياً في العرض، الذي يقدمه أخوك.

عدنان : أعمالك تحتاج إلى طينة أخرى من الرجال. **(وهو يهمّ بالانصراف)** على كلٍ.. أشكر لك عرضك.

سرحان : أتمنى ألا تنقطع بيننا الزيارات. قد تمرّ عليك فترات صعبة، ووقتها لن تجد العلاج الشافي إلا عندي.

عدنان : (يوقف، ويلتفت) إنك تضحكني.

سرحان : لا أحد يعلم جوعك إلى الحنان مثلي. وفي حالتك، لا أحد لديه ما يشبع هذا الحنان غيري.

(يخرج عدنان)

سرحان : ما أطيبه، وما أغباه! أنا ملك اللّذة، يريدني أن أجرِّد حملة لمحاربة العار وغسله!

(٢٠)

فصل الحنان وفكّ عقدة اللسان

(غرفة في أحد فنادق شتورة)

ليلى : لم يكن لي عرس. لا ثوب أبيض، ولا جهاز عروس، ولا حفلة عرس. أعطاني أبي بعض المال، وتمنّى لي التوفيق. لم يحضر من إخوتي أحد إلا عدنان. ولم يهتمّ بزواجي قريب أو صديق سواه. وحين خرجت من البيت، وليس معي إلا حقيبة ثيابي، يحملها زوجي، فرطت الدموع من عيني، وكأنها واجب ينبغي على الفتاة أن تؤدّيه، حين تغادر بيت أهلها. لا.. لم أكن حزينة. وحين ركبنا السيارة، وبدأنا نخرج من بيروت، كانت السماء المتلألئة بالشروق تبدو وكأنها تزغرد لنا، وترشُّ علينا الأماني والوعود. وفي أحشائي، كنت أحسُّ أن نبعاً خفيّاً من الفرح والأمل، بدأ ينزُّ، ثم يسيل، ثم يتدفق، فيغمر داخلي كله. وكان شامل إلى جواري، قوياً كصخرة، حنوناً كنسمة. وفي شتورة قرّر أن نقضي ليلتنا في أحد الفنادق. وحين غدونا في الغرفة، ونظرت إلى السرير العريض وبياضاته النظيفة، امتلأت أعطافي بالهياج والقلق.

شامل : ينبغي أن أخبركِ، أن دمشق أقل بهجة من بيروت. وفي هذه الفترة، يعيش الناس أياماً عصيبة. فبعد اندلاع الحرب العالمية ازداد ضغط الفرنسيين، وامتلأت السجون بالشباب الوطنيين. لا أقول ذلك كي أخيفك، بل كي أجنّبك الشعور بالغربة أو

الوحشة.

ليلى : ووسط الاهتياج والقلق، كنت أشعر على نحو غامض، أن الكلام يتشكّل، كحبيبات الزبدة على رأس لساني. وكنت أريد أن أقول له، لن أشعر بالوحشة أو الغربة ما دام إلى جواري.

(تحاول أن تنطق، فلا تخرج إلا أصوات منفعلة ومبحوحة.)

شامل : **(وهو يقترب منها، ويلامس وجهها برفق، فتبدر منها حركة حياء خفيّة)** لا ترهقي نفسكِ، ودعي الحديث لي. تزدحم في صدري كلمات ومشاعر، ينبغي أن أفضي بها. أحسّ أني حصلت على اللؤلؤة، التي يتنافس من أجلها الغوّاصون. سيكون لكِ عرس يليق بكِ، وسأعوّضك عن العذابات التي قاسيتِها. لم أكن أعلم أنكِ تحمّلتِ الصدمة عن الجميع. ولم أكن أعلم، أن الأب كان يتفنن في تعذيبك، تعويضاً عن شعوره بالعجز والإهانة.

ليلى : كان يتكلم بصوت حنون، وكنت أحس أن مفاصلي ترتخي، وأن حبيبات الزبدة ما زالت تتكوّن على أطراف لساني. وتمنيت لو أن لدي كالعرائس منامة لطيفة، أرتديها، وأندسّ في الفراش العريض.

شامل : أريدكِ الآن أن تنسي القلق والمخاوف وما فات، وأن تسترخي آمنة ومطمئنة. لم تخطئ أمُّكِ حين قالت إنك أحلى ما أنجبَتْ. كم كانت رقيقة وحنونة! تجمّرت عيناها من البكاء، حين علمت ما فعلته الصدمة بكِ. هل مللت سماع رسالتها؟ أم تريدين أن أكررها أيضاً؟

ليلى : وأومأتُ له، وخدر لطيف يسري في جسدي، أن يكرر لي رسالة أمي ووصيتها.

شامل : تقول لكِ أمُّك يا ليلى.. إنها تحلّك من كل عهد أو كتمان،

ولا تطلب إلا شيئاً من المحبة والغفران. ولا تخافي من الحب، لأنه النعمة التي تجمّل الإنسان، وتجعل الحياة فرحاً وأملاً يتجددان ولا ينضبان. والحب يا ليلى يحتاج إلى قلب معافى، وروح صافية. الخوف والمرارة والمخادعة، كلها أغذية فاسدة تسمّم الروح، وتقتل براعم الحب. لا تعصري قلبك حين يخفق! ولا تحبسي أنفاسك حين يتدفق الدم لاهثاً في عروقك! وحين تشعرين أن عاطفة كالتّيار تدفعك نحو، الذي برقت له عيناكِ، وخفق له فؤادكِ، اركبي التيار، ولا تخافي.! انغمري في مياهه وأمواجه، ولا تخافي.! أغمضي عينيكِ واسترخي! وفي لحظة، لا تعرفين متى حلّت، ستجدين لسانك طليقاً، يتدافع بالكلمات، كي يعبّر عن الشكر والفرح والامتلاء.

ليلى : شملني خدر لذيذ، وشعرت أن جسدي عجين تخمّر ونَفَش. هل كان يداعب شعري وقتها! هل كانت يده نسمة لطيفة تمسّ صدري! من يذكر التفاصيل في مثل تلك اللحظة! كنت أغمض عيني، وأستسلم لهذا القلق البهيج، الذي يخمّر جسدي، ويَنْفشُه.

شامل : وختمت الأم قائلة.. أخبز ابنتي، وهي أحبُّ أولادي إلى قلبي، أن الحب وحده هو الذي سيفكّ عقدة لسانها. وإن عرفتما كيف تتغلبان على الخوف والخجل، وتجعلان تلك الليلة عيداً، لا تنقطع مشاهده ومسراته، فإنها ستجد لسانها، ورقّة ألفاظها. هذه الفتاة كنز، فساعدْها على أن تُبرز الخير الكثير، الذي لديها. وكبؤبؤ العين حافظْ عليها. أما أنا.. فلو أردت أن أصف مشاعري يا لؤلؤتي.. ويا كنزي، لما عرفت أيّة ألفاظ أنتقي!

ليلى : وكانت حبيبات الزبدة تتكاثر على طرف لساني، ولكن لم تكن هناك ضرورة للكلام. ورغم الحياء والارتباك، كنا ندخل في العيد متنقّلين بين مشاهده ومباهجه، خلال ليل طويل لا ينتهي.

(يخفت الضوء عليهما تدريجياً، وهما يتحابّان.
فترة هدوء طويلة نسبياً، يتخللها في بدايتها آهات يعقبها صمت ثقيل.
تتغير الإضاءة. يشرق يوم جديد. تستيقظ ليلى، وهي في حضن شامل. تلامس بيد حذرة كل شيء.. جسدها، وجسد شامل، والفراش. توشّي ملامحها نضارة الارتواء، والتماعات الفرح والاندهاش)

ليلى : وحين صحوتُ، شعرت أني أشهد ولادتي الثانية، وتفحّصت لساني في فمي، فوجدته خفيفاً وليناً. وجرّبت فوراً أن أنادي.. شامل. في البداية كانت الحروف تتداخل أو تندغم، ولكن بعد قليل تحرّر اللسان من عثراته، واستردّ طلاقته. وحين استيقظ شامل، صاح مكبّراً، ثم حملني وراح يرقص حافياً في الغرفة. في ذلك الصباح الذي لا يُنسى، تحدثنا كثيراً، كأننا نعوّض أيام الصمت الفائتة. رتّبنا العرس سويّاً، والبيت الذي سنسكنه، والحياة السعيدة التي سنعيشها. في ذلك الصباح أخبرني أيضاً أنه، رغم زيّه ومهنته، هو واحد من الشباب الوطنيين، وأن نضالهم لن يتوقف حتى تنعم البلاد بالاستقلال. آه.. ذلك الصباح.. كم هو بعيد وجميل ذلك الصباح!

(تختفي الإضاءة.)

(٢١)

فصل المواجهة والرعب

(تجلس سناء في ردهة البيت، وبين يديها جورب ترفوه. ومن الغرامفون تنبعث أغنية قديمة وشجيّة. الباب مفتوح، وكذلك النافذة. بعد قليل يدخل عدنان، ويتسمّر عند الباب)

سناء : **(تباغتها المفاجأة. تتريّث لحظات حتى تستوعب الموقف. فجأة ترمي ما بيدها، وتقفز نحو عدنان، وتطوّق عنقه)** حبيبي عدنان.. ابني عدنان.. آه.. ما أجمل أن أراك! **(يتخلّص من عناقها بحركة جافة، ولكن رغم خشونته تستمر في اندفاعتها)** لم تتغير كثيراً. ادخل.. ادخل.. **(تجرّه برفق)** هذه الأريكة مريحة. اجلس ودعني أتأمّلك. ينبغي أن تقصّ عليّ أشياء كثيرة.

عدنان : **(يغمغم، وهو يختلس النظر إليها بعينيه العابستين والمحرورتين)** أمّاه..

سناء : يا عين أمّك.. لن أسألك كيف وصلت إلى بيتي ومخبأي. وكنت دائماً أخشى أن أواجه أحداً منكم، بعد رحيلي. ولكن حين رأيتك، فار الشوق، وتغلبت اللهفة على حذري ومخاوفي.

عدنان : أمّاه..

(ينقطع صوته، ويغرغر الدمع في عينيه)

سناء : يا بنيّ.. إنك تحرق فؤادي. أستطيع أن أرى، أنك تحمل همّاً يشوّه سماحة وجهك، وتنحني تحت ثقله هامتُك. كنتَ

دائماً طيب القلب، تحمل هموم الآخرين، وتؤثرهم على نفسك. افتح صدركَ، وأخبرني ما الذي يوجعك.

عدنان : أمّاه..

سناء : يا روح أمّك.. انفضْ همومكَ في حضني، ولا تخجل. هل يضايقك إلحاحي؟ طيب.. تصرّف على راحتك، بينما أعدُّ لك فنجان القهوة السادة، الذي تحبّه.

عدنان : **(يحاول أن يتماسك، ويقسو وجهه وصوته)** لا.. لا أريد قهوتكِ.

سناء : ألا تريد قهوة أمّكَ يا عدنان؟ لن أعتب عليكَ، لو اعتبرت قهوتي مدنّسة. ولكني أمٌّ.. وهذه الهموم التي تحملها تجعل قلبي يتفطر.

(بيد عصبية يُخرج عدنان المسدس، الذي يحمله، من قِرابه، ويضعه على فخذه)

عدنان : **(بصوت متحشرج)** أمّاه..

سناء : لماذا لا تتكلم؟ هل جئتَ لتقتلني؟

عدنان : **(يستجمع شجاعته، وينظر إليها)** ما فعلتِه يا أمُّ فظيع.. فظيع.

سناء : ولهذا كلّفوك أن تقتلني، وتدفن هذا الشيء الفظيع؟

عدنان : لم يكلّفني أحد. كلهم نسوكِ، واستأنفوا حياتهم، وكأنك لم تكوني. أنا وحدي.. لم أستطع أن أنسى، ولم أستطع أن أتغلب على شعوري بالفظاعة والعار.

سناء : أفهم حساسيتك يا بنيّ. لا أريد أن أبرّر نفسي، ولا أحبُّ أن تكون بيني وبين ابني محاججة ومقاضاة. إذا كنتَ مصمّماً، فإني لن أتوسل، ولن أعارض قدري.

عدنان : على كاهلي حمل ثقيل، عوّق حياتي، واستنفد قواي.

سناء : لم يخطر لي أنك تعاني كل هذا العذاب. كم صلّيت، وتوسّلت إلى الله، كيلا يجعل هذه السعادة المتأخرة مصدراً

لشقاء أحد!

عدنان : أنا أحمل هذا الشيء الفظيع، وأنتِ تتقلّبين في السعادة! **(يتصلّب وجهه، ويصوّب المسدس نحو أمّه)**

سناء : نعم يا بنيّ.. في خريف عمري، وهبني الله بعض السعادة. لا أستطيع أن أشرح لك، لأن ذلك يستغرق عمراً كاملاً.

عدنان : **(ما زال يصوّب مسدسه، بتصميم واضح)** هذا فظيع..

سناء : **(متّقدة الوجه)** من يستطيع أن يجزم أن قتلي عادل؟ ولكن ما أهمية العدل، إذا كان قتلي يمكن أن يداوي جروح كرامتك ورجولتك. اسمع يا بنيّ.. لن أكذب عليك، وأقول.. إني لا أخاف الموت. ولكن إن جئتَ بعد مطاردة طويلة، كي تقتلني، فاجمع قواكَ، وافعلها قبل أن تتآكل عزيمتك. **(يشدّ عزيمته، ويسدّد)** هيا يا بنيّ.. صباح اليوم اغتسلت، وأنا جاهزة للموت.

عدنان : **(ترتجف يده، وتغرغر عيناه بالدمع)** أمّاه..

سناء : لن ألومك يا ولدي، ولن ألعن الحليب الذي غذّاكَ صغيراً. ارفع يدكَ، وأطلق رصاصتك.

عدنان : إنك تستلّين مني عزيمتي.

سناء : إني أحاول أن أساعدك يا بنيّ. إذا لم تقتلني، فإن الخجل والخوف والعجز، كل ذلك سينمو، ويتحوّل في داخلك إلى أورام تفسد حياتك.

عدنان : **(وهو ينهض بعنف)** هذا مستحيل.. هذا مستحيل.

سناء : **(تمسكه، وتحاول أن تمنعه من الخروج)** انتظر.. انتظر يا بنيّ.. تعالَ.. واسند رأسكَ على صدري. هل تذكر كم كنت تحبُّ النوم على صدري؟

عدنان : **(وهو يفلت منها)** اتركيني.. اتركيني..

سناء : إني لا أراوغ، وإني أعني كلَّ كلمة قلتها لك. اقتلني ولا

تقتلْ نفسك. نعم.. اقتلني ولا تقتلْ نفسك.

عدنان : **(وهو يدفعها)** دعيني يا أمُّ..

(بخطىً عجولة ومتعثرة يخرج من الباب، ويختفي)

سناء : عدنان.. عدنان..

(تتراخى ركبتاها، وتتهالك على الأرض منفجرة بالبكاء.
تختفي الإضاءة.)

الحفيد : كانت نيران الحرب قد امتدَّت إلينا. انقلبت أوضاع، وتواترت أوضاع جديدة. ومن الغريب أن تعصف هذه التغيرات بامرأة تتألق ذكاء وخبرة، مثل خالتي سلمى.

سلمى : أتعبْتني يا بن أختي.. قلت لك لا أحب أن أستعيد الماضي. أو أن أتذكَّر سوالفه المضجرة.

الحفيد : هو سؤال واحد يا خالتي.

سلمى : وما هو هذا السؤال؟

الحفيد : هل كنت تتعاطفين مع الفيشيين؟ أم أنك أخطأت الحساب، ولم تعرفي كيف تبدِّلين ولاءك في الوقت المناسب؟

سلمى : أتظن خالتك طرطورة يا ابن الخرساء؟ كان الفيشيون أصدقائي، ويقضون ساعات اللهو، وأحياناً ساعات الجِدِّ في صالوناتي. كانوا هم الفرنسيون بالنسبة لي. وكنت بينهم الملكة، التي يشاطرونها أسرارهم، ويفوِّضونها في ترتيب ما يحتاجونه من لهو ومتعة. كانت لي مملكة، وكنت أتلألأ فيها.

الحفيد : لو عرفتِ كيف تغيِّرين ولاءك، لبقيت الملكة والمملكة.

سلمى : لا أحب الإنكليز، ولا أولئك الذين كانوا يزحفون وراء الإنكليز، ويتشدَّقون بأنهم فرنسا الحرة.

الحفيد : هل آذوكِ حين أوقفوكِ، واتهموكِ بالعمالة لحكومة فيشي؟

سلمى : آذوني..! كان التحقيق مسخرة، وبعد يومين أطلقوا سراحي، كي يواروا خجلهم، ويتَّقوا سلاطة لساني.

الحفيد : وماذا فعل أخوكِ الملك؟

سلمى : لا تذكِّرني به.. ولا أعجب أن يكون هو الذي وشى بي، وحرَّض عليَّ. وعلى كلٍّ.. منذ تلك الحادثة انقطع ما بيني وبينه.

الحفيد : وفي تلك الفترة، بدأت خالتي سلمى تفقد إعجابها

بالفرنسيين، وتبدّل اتجاه حماستها. صارت تمجّد لبنان، وكلَّ ما فيه.. أرضه وسماءه وأرزه. وتتباهى بالتبولة والكبّة النية ومازة العرق. كذلك أقلعت عن الفرنسية، وتحوّلت إلى الهديل بالدارجة اللبنانية، المطعّمة بقليل من الكلمات والعبارات الفرنسية.

أما خالي الملك فكانت مملكته تزدهر وتزدهر.

(٢٢)

فصل الجناح المكسور وبناء السور

(داخل البيت، تتمدد سناء على ديوانة. عيناها ساهمتان، ووجهها يطوّقه أسىً عميق وشفاف. يدخل حبيب بحركة خفيفة، مقترباً من سناء. تتناهى من الخارج أصوات المعماريّ وعماله، وهم يغادرون المكان)

حبيب : أنهوا اللمسات الأخيرة، واكتمل بناء السور. **(يجلس قربها، ويمسح على شعرها)** لماذا لا تنهضين؟ بردت القهوة.

سناء : إني فارغة.. وقلبي فحمة سوداء.

حبيب : كلما رأيت هذه الكآبة تتوسّد وجهك، أشعر أني مريض وخائف.

سناء : بعد اليوم، ستساكننا الكآبة، وعلينا أن نعتاد رفقتها.

حبيب : **(بعنف)** لا يا سناء.. لن أسمح للكآبة أن تفسد هذا النعيم، الذي نعيشه، والذي نبنيه لحظة لحظة، ولمسة لمسة. خذي.. واشربي قهوتكِ.

سناء : **(وهي تنهض، وتتناول فنجان القهوة)** رغم كل ما بذلناه، فقد تسرّب الفساد إلى نعيمنا، ونشر فيه المرارة والفوضى. وهذا السور الذي بنيته، لن يمنع تسرّب الفساد، حتى ولو حوّل هذا البيت إلى قلعة. ذلك عقيم، وما كان ينبغي أن تعاند، وتبنيه.

حبيب : لا.. بعدما حدث، كان ضرورياً وملحّاً أن أبنيه. ومن يدري.! لو بنيناه في وقته، لتفادينا هذه الهزّة التي تظلّل

وجهكِ بالكآبة.

سناء : لا تستطيع الجدران مهما كانت سميكة وعالية، أن تحتجز موجات العمر، وما تحمله من ذكريات ومشاعر وصور. آه يا حبيب.. يبدو أن شعورنا بالإنعتاق، وبأننا نبدأ من نقطة طاهرة، وليس لها ذاكرة، لم يكن إلا وهماً بدّدته زيارة.

حبيب : إنكِ تنزلقين إلى اليأس، دون مقاومة. أنا أفهم الصدمة، التي تعرّضتِ لها. لا أفهمها فقط، بل أشعر مسّها الصاعق في سويدائي. ما بيننا لا يستوعبه ما يُقال عن الروابط والصلات. ما بيننا هو تزاوج العصب مع العصب، ونبضة الدم مع نبضة الدم. ما زال درب السعادة طويلاً أمامنا. وإن تركنا اليأس يتسلّل إلينا، فسنغرق في الوضاعة والرتابة والموت.

سناء : مرّت فترة، اعتقدت فيها أن حياتي الماضية انطوت، وحملتها ريح كريمة إلى عتمة النسيان. أحسست أني خفيفة، وأني أبدأ فعلاً من لحظة شفافة، وعودها وافرة.

حبيب : وبالفعل، عشنا هذه اللحظة، ولم تكذّبنا وعودها. بدأنا تجربة مذهلة، ولا يحق لنا الآن، أن نُجهضها بالمخاوف والوساوس.

سناء : في خريف العمر، لا يستطيع المرء أن يربط ماضيه كبقجة ملابس، ويرميها في زاوية الخزانة. انظر كيف يتدافع الماضي ممسكاً بتلابيبي.! لن يستطيع قلبي بعد اليوم، أن يرفرف طليق الجناحين، لأن عذاب ابني كسر جناحي. وسأشرد عنك، كلما خطر لي هل نطقت ليلى أم لا..

حبيب : سناء.. يا حبيبتي.. إن الصدمة هي التي تولّد هذه الأفكار

السوداء. حين اتّخذنا قرارنا كان هناك أولاد، وكانت هناك ذكريات. ومع هذا استطعنا أن نعيش كل دقيقة بصورة مبتكرة. وأن نجعل كل الزمن، في ماضيه وحاضره ومستقبله، فضاءً من الخيال والعشق والالتهاب. أتكفي هزّة عابرة كي تشعري بالإحباط، وتدمري كل ما أحرزناه من جمال ودهشة وثراء! كنت أعتقد أن حبنا أكبر من المواضعات العائلية، وأننا نتجاوز المألوف، ونقترب من الفرادة التي تليق بنا. ألم نكتشف جنائن من الأحاسيس الغريبة واللذات المبهورة! ألم ندخل مغاور مكسوة بالمخمل والأحجار الكريمة! ألم نلمس الينابيع الخفية، التي يفتش عنها الإنسان طوال حياته فلا يجدها.! لا يا حبيبتي.. لا يجوز أن ندعَ هزّة عابرة تحبطنا.

سناء : ما أشدَّ ضعفي! يكفي أن أصغي إلى السحر الذي يتدفق من لسانكَ، حتى تنقلب أفكاري، وينبعث في جسدي خدر هادئ ومريح. أتظن أننا سنتجاوز هذه الهزّة، ونستعيد نعيمنا؟

حبيب : طبعاً سنتجاوزها. ولا يعقل أن نتخاذل ونسقط، في اللحظة التي نطلُّ فيها على مشارف البهاء!

سناء : أترى أننا نقترب من البهاء فعلاً؟

حبيب : نعم.

سناء : (وكأنها تحلم) ألن يستغرق الوصول إليه وقتاً طويلاً؟

حبيب : كدنا نصل إليه. ونحن الآن على مشارفه.

سناء : هل تصف لي هذا البهاء؟

حبيب : ذات يوم حدثتك عن رؤيا فاجأتني بعد دفن زوجتي. رؤيا مذهلة، كانت تجسّد كل العلامات الغامضة، والأشواق التي تستعر في داخلي. هل تذكرين ما حكيته لكِ؟

سناء : نعم.. أذكره، وإن كنت لم أفهمه جيداً.

حبيب : في ذلك الوقت أنا أيضاً تحامقت، ولم أفهمه جيداً. انغمست في اللّذات العابرة، وصار لديَّ حريم من البغايا. وكنت كلما غصت في هذا الوحل، شعرت أني أزداد خواءً واكتئاباً. لم أمتلئ، ولم أعرف فرح الأعراس، التي رأيتها ذلك اليوم تتوقّد في صدري. وفي لحظة واحدة بترت كلَّ صلاتي، ورحتُ أهدهد يائساً ذلك الشوق النَّهِم الذي لن يعرف الارتواء أو الاكتمال. كنت أجرجر وجوداً شاحباً ومتداعياً، حين انبثق نورُكِ في وجهي. فأدركت على الفور، أنكِ البهاء، أو أنكِ السرُّ الذي يقود إليه.

سناء : هذه المبالغات تربكني. ما أنا إلا امرأة عادية أعماها الحب.

حبيب : بل أنتِ المرأة.. المرأة المكتملة، والمفعمة بالأسرار والخبايا والكنوز. انتظرت طويلاً حتى التقيتكِ، والآن.. حانت الفرصة كي نفضَّ أختام الأسرار والخفايا والكنوز، ثم نمضي نحو البهاء الذي لا ينفد.

سناء : إني عاجزة عن فهم أفكارك ومعانيك. هل تريد أن تمضي في نبش ذاكرتي، ومعرفة دقائق حياتي؟

حبيب : لا.. ما كان نبش الذاكرة إلا تدريباً أوّلياً.

(يعانقها بلطف. يبدأان بتبادل الحب باسترخاء ونعومة. بينما يأخذ الحوار طابع التداعي الطليق)

سناء : وماذا تتصور لنا؟

حبيب : بدلاً من نبش الذاكرة، أريد أن أسكن فيها.. أريد أن أسكن في داخلك.. أن أسكن في أحشائك.. أن ألتفّ على نفسي في رحمك..

سناء : أتريد أن تكون ابني؟

حبيب : لا.. هذا شيء فقير، ولا نحتاجه. أحلم أني أجري في

عروقك.. وأني أتغلغل في أنسجتك.. وأني ألمس أبعد خفاياكِ..

سناء : أتعلم..! في داخلي صوت ما فتئ يكرّر لي، أنك تريد أن تمتصّني من داخلي وخارجي. وأحياناً يبدو أن نهمك لن يشفى، إلا إذا..

حبيب : **(والعناق يزداد حرارة)** إلا إذا..

سناء : إن صوتي الداخلي هو الذي أخبرني.. لن يشفى نهمُك إلا إذا أكلتني.

حبيب : ليتنا نملُك تلك الجسارة!

سناء : أتريد حقاً أن تأكلني!

حبيب : حين أراد المسيح أن يُطعم الناس خبز الله الحقيقي، وأن يجعلهم يبصرون نوره الوهاج، طلب منهم أن يأكلوا جسده، ويشربوا دمه، وقال.. من يأكل جسدي، ويشرب دمي يثبت فيَّ وأنا فيه. ولو استطعنا لعرفنا طعم الخبز، الذي نفتّش عنه منذ ولادتنا.

سناء : هذا جسدي بين يديك، فهل تتمنى أن تجرب؟

حبيب : لا.. ذلك يحتاج إلى لحظة خارقة، ينبغي أن نصلها معاً. وعلى كلٍ لا شيء يستعجلنا، ففي هذا العش الذي انتحى بعيداً عن الصغائر والتفاهات..

سناء : والذي تحوَّل سجناً. كم أخبرني صوتي الداخلي، أنك لن تستريح قبل أن تبني حولنا سجناً!

حبيب : **(مع ازدياد اندماجهما في الحب)** على أي سجنٍ تتكلمين. هنا فضاء حريتنا. وفي هذا الفضاء، سنبدأ تجربتنا الفذّة. التجربة التي لم يعرفها إلا الخاصّة من البشر. تجربة التوغّل في الحب حتى مطافاته الخلاّبة والبهيّة. سيكون أمامنا درجات ينبغي أن نتسلّقها، وكلما تسلّقنا درجة اقتربنا من سرّ

الوجود، ومعناه المطلق.

سناء : لا شك أن ما تبصره عجيب وأخّاذ، ولكن هل تعتقد أن بوسعنا الوصول إليه؟

حبيب : نعم.. سنصل إليه. كل شيء مُباح، وكل ممارسة ممكنة. ووقتاً بعد وقت، سنزداد عرياً وانكشافاً وامتزاجاً حتى نجد أنفسنا نرفرف في البهاء.

سناء : هل ستكون الطريق طويلة؟

حبيب : ذلك يتعلّق بنا. في هذا الفضاء الدافئ والنقيّ، سنتلاصق كدودتي قزّ. ومع أنين المتعة وشهيق اللذة، سنحوّل ما في دواخلنا من الندّى والشهوات إلى حرير يفيض منّا، ويتكوّم حولنا لامعاً وجميلاً. وحين ينفد من جسدينا الحرير، نتحوّل فراشتين أو فراشة واحدة. وبرفيف إيقاعيّ لطيف، سنطير إلى الألق، حيث يمكن أن نلامس البهيّ والأبديّ.

سناء : إني أطفو فوق مياه دافئة.. إني أجري مع الماء بعذوبة.. هذا منام العمر.. هذا منامي. أحبّني، ولا توقظني.

حبيب : إننا نبدأ الرحلة، والتيّار يمضي بنا.

سناء : ما أمتع اهتزاز الماء تحت ظهري!

(ينغمسان في الحب بشغف وعنف متزايدين. بعد فترة تندُّ عن سناء آهة محمّلة بالرعب، وتنهض مبتعدة عن حبيب)

حبيب : ماذا هناك؟

سناء : **(وهي ترتعش)** لا أدري.. لا أعرف كيف أصف ذلك! فجأة انتفض قلبي، وشعرتُ أن رصاصة تخترق رحمي.

حبيب : لا تقلقي.. هو مجرّد توتُّر انفعاليّ، سبّبه حشد الصور والمشاعر التي تخيّلناها.

سناء : **(وهي تبكي)** حبيب.. لا أعتقد أننا سننجح.

حبيب : اعتمدي عليّ، وأنا موقن بالنجاح.

سناء : إن رحمي يؤلمني حقاً.

حبيب : هو ألم عصبي، سيزول عما قليل. **(وهو يضمُّها)** المهم.. اهدئي واسترخي.

(تختفي الإضاءة.)

(٢٣)

فصل الكوابيس الفاجعة

(غرفة سونيا. تجلس سونيا وحيدة على حافة السرير، شاحبة الوجه، وعاطلة من كل زينة. في عينيها رعب متخثّر. تبدأ الكلام بصوت متلجلج وبطيء)

سونيا : لو أستطيع أن أنام! أو لو أستطيع أن أنسى! خلال عمري القصير.. كم مرة تمنيت لو أن أمي لم تلدني، ولم أرَ أهوال هذه الدنيا! منذ فترة قصيرة، بدأ يتردّدُ عليّ. أوصاني أخوه سرحان أن أعتني به. كان يبدو مشتّتاً، تُزعزع كيانه معاناة، توحي بالموت وليالي الشتاء. في البداية تهيّبت الاقتراب منه، ولكن خلال وقت قصير، اكتشفت أنه رغم التشتت والمعاناة، شديدُ الحساسية، ويختلف عن أخيه في طيب المعدن والمعشر. كان يأتي كلّ ليلة.. وكان يتحاشى.. أهو الحياء، أم الطُهر.. لا أدري! **(تسترخي على السرير)** أحياناً يسترسل كل منا في صمته، وأحياناً نتبادل من الكلام ما يأتي عفو الخاطر. البارحة.. ملعونة بين الأيام تلك البارحة.. دخل عليّ مربدّ الوجه، محتقن النظرات، مهلهل الكيان ومهلهل الثياب أيضاً.

(يدخل عدنان بالهيئة التي وصفتها سونيا، ويرتمي على السرير. إن الحوار بينهما بطيء ومقطع)

سونيا : **(وهي تقترب منه، وتمدُّ يدين مترددتين إلى كتفيه)** يبدو أنك متعب.. دعني أدلّك كتفيك وظهركَ قليلاً.

عدنان : **(وهو يبعد يديها بخشونة)** أرجوكِ يا سونيا..

سونيا : لماذا تبعدني؟ أريد أن أساعدك.. أريد أن أعطيك..

عدنان : إن حضوركِ يكفيني. أما الملامسات وتلك الأشياء فإني..

سونيا : هل أفتقر إلى الجاذبية، أم أنك تجدني ملوّثة ومقزّزة؟

(يدير ظهره لها، تتأمله لحظات، ثم تجلس على الجانب الآخر من السرير، وتسود فترة صمت)

عدنان : هذا الحلم يُمسك بخناقي.. نعم.. وعدتهم أن أدرّبهم على استعمال السلاح.. شباب يفورون حماسة ووطنية، ويريدون العراق. لم أجد في داخلي عزيمة أو حميّة.. فراغ مخجل كالإفلاس المفاجئ.. أتعرفين شيئاً عن تفسير المنامات؟

سونيا : قالوا لي مرة.. إذا سمّيت بالرحمن، ورويت منامك على عين الشيطان، يذهب ضرره.

عدنان : إن الأمّ كائن عجيب يا سونيا.. هل لكِ أمّ؟

سونيا : أوه.. ضيّعتها منذ سنوات طفولتي الأولى.

عدنان : لعلك محظوظة! إن الأمّ كائن محيّر، يرويكِ بالحنان صغيرة، ثم يترككِ على عطشكِ عمراً. كائن إن هجركِ أحسستِ بالضياع، وإن غضب أحسستِ بالرهبة، وإن نظر إليكِ انكسرت عيناك. إن الأمّ كائن رهيب يا سونيا. نعم.. لم أجد في داخلي عزيمة أو حميّة. كيس مليء بالعجز والرخاوة والفضلات.

سونيا : كم أودُّ لو أستطيع أن أتحمل بعضاً من معاناتك! لماذا لا تتقيأ هذه الصفراء، التي توهن الفؤاد وتفسد المزاج؟

عدنان : أتقيأ.. نعم هذا ما أحتاجه الآن.. يبدو أني خرجت من البيت.. أي بيت؟ لا أدري! كانت السماء غائمة.. تطلّعت حولي، فرأيت أراضي غطّتها السيول، وحوّلت ترابها إلى

طين ووحول.. لم يدهشني المنظر، وقلت في نفسي.. هذه بقايا الفيضان، وستظلّ الأراضي مغطّاة بالوحول فترة طويلة. وبينما كنت أتطلع حولي، اكتشفت في أرض مجاورة، خطوط حراثتها ما زالت رغم السيول منتظمة، جثّة رجلٍ صغير وعارٍ من الثياب. ووجدتني إلى جواره أتأمّله، وأعجب من وجوده في هذا المكان. حضرت أمي، ولا أدري متى! كان وجهها محايداً وهادئاً. سألتها.. من هذا يا أمي؟ فأجابتني.. إنه أنت يا بنيّ. اندهشتُ وغضبتُ.. قلتُ لها.. انظري كم هو صغير وضئيل! فقالت.. في البرد والمطر تقلّص بدنه وانكمش. قلت لها.. هل تعنين أني.. فأجابت بصرامة.. ارفعه واستره، قبل أن يتقاطر عليه الحلزون، ويغطيه. ثم استدارت واختفت. كنت مرتبكاً ولا أدري ماذا أفعل. وفجأة.. رأيت سرباً من الحلزون، يزحف على الجسد الضئيل والعاري، تاركاً على الجلد أشرطة لامعة من سوائله الرخوة. ثم رأيت حلزوناً طويلاً، تخلّص من قوقعته، وزحف بعضلاتٍ أفعوانية نحو الفم. ورأيت الفم ينفرج.. ورأيت الحلزون ينفذ في الفم، وشعرت بالبلل.. **(يضغط على معدته، ويضع يده على فمه)** أريد أن أتقيأ.

سونيا : **(تمسح على شعره بحنان، فيبعد يدها بجفاء)** قلْ.. يا رب خذ شرّه، واعطني خيره.. وعلى كلٍّ فإن الموت في المنام حياة.

عدنان : كم كنت ضئيلاً وصغيراً وبشعاً!

سونيا : لا.. لا تقل ذلك. إنك رجل كامل، يهفو له القلب.

عدنان : سونيا.. هل تفعلين شيئاً من أجلي؟

سونيا : لن أتردد إذا استطعت.

عدنان : **(يخرج مسدسه من قِرابه)** هل تقبلين أن أضعه في فمكِ؟

سونيا : (مرتبكة وحائرة) ماذا تنوي ؟

عدنان : لست أدري!

سونيا : (كالمنوَّمة) افعل ما تشاء.

(يضع المسدس في فمها، ويحدِّق كلٌّ منهما في عينيّ الآخر. في يده رعشة ملحوظة. بعد فترة مديدة من التوتر والانفعال، يسحب فوهة المسدس من فمها ببطء شديد)

عدنان : ماذا أحسستِ؟

سونيا : بعض الغثيان و شيئاً من الرهبة والبرودة.

عدنان : **(يوجّه المسدس نحو فمه)** نعم.. الغثيان.. وشيء من الرهبة والبرودة..

سونيا : ماذا تريد أن تفعل؟

عدنان : لا شيء.. أريد أن أضاعف غثياني، وأن أذوق طعم الرهبة والبرودة.

سونيا : أرجوك دعنا من العبث بالمسدس.

عدنان : سونيا.. أريد أن أستعيد حُلمي فساعديني.

سونيا : وكيف أساعدك؟

عدنان : اغمريني بالصمت، ودعيني مع غثياني.

(يضع فوهة المسدس في فمه، ويمدُّ يده الأخرى إلى أسفل بطنه. بعد فترة تنفجر رصاصة. تُطلق سونيا صرخة محتبسة.)

سونيا : لو أستطيع أن أنام! أو لو أستطيع أن أنسى! خلال عمري القصير.. كم مرة تمنيت لو أن أمي لم تلدني، ولم أرَ أهوال هذه الدنيا!

(تختفي الإضاءة.)

(٢٤)

فصل الزبدة في الحكمة والقوة

(مقر سرحان. سرحان والحفيد)

الحفيد : في وقت ما، وجدت أني لا أستطيع تجاهل خالي سرحان نهائياً، فغالبت نفوري، والتقيت به في عرينه. لم يكن هناك حوار. بدا وكأنه ينتظر لقائي، كي يفرد أمامي ما استقر عليه من أفكار وحِكَم.

سرحان : اسمع يا بن أختي.! فعلاً ما زال العالم غابة، والغلبة فيه لمن هو أقوى. والأقوى في عالم اليوم ليس الرجل القوي العضلات، أو القادر على البطش والعدوان. بل هو صاحب النفس القوية التي تستطيع، في مواجهة هذا العالم، أن تهضم البشاعة والدناءة وكل أشكال الانحطاط. أما الآخرون، وهم الخوّارون وضِعاف النفس، فإنهم يفرّون من مواجهة العالم كما هو، إلى ملاجئ من الأوهام والخيالات السقيمة. وبالنسبة لي.. هذا هو جوهر الوجود. هناك قِلة من الأقوياء تستطيع، أن تنظر إلى فساد العالم ونقصه بعيون مفتوحة وجريئة. وهناك الكثرة التي تراوغ النظر إلى العالم، وتختفي وراء بلورات ملوّنة من الوهم والحلم. الخير والشر، المبادئ والقيم، الصور والمدن الفاضلة.. كلها أوهام، تزيد ضعاف النفس ضعفاً، وتجعلهم يمرّون قرب الحياة دون أن يذوقوا تدفّقها، وتنوّع ثمارها. لا شك أنك تساءل.. ألم يكن بوسعي أن أفعل شيئاً، لكي أنقذ خالك عدنان من مصيره!

مراراً حاولت أن أغريه بالتخلّي عن أوهامه. عرضت عليه أن يكون له كل يوم فَرْج من الحريم، وما تشتهيه نفسه من المتع والمسرات. فازدراني، وآثر أن يلاحق وهمه الذي أودى به. لا.. ما كان يمكن إنقاذ تلك النفس الخائرة. وخالتك هي الأخرى، ما زالت تجري وراء أوهامها.. من قبل حاولت أن تفرنس لبنان، واليوم تريد أن تلبنن العالم. وأمّك تضع صورة أبيك أمامها، وتلقّنك آيات الوطنية والتضحية والنضال.

اسمع يا بن أختي.! ما بدّد عائلتنا، وما يبدّد حياة الأغلبية من البشر هو الأوهام. والسرّ في قوتي ونجاحي، هو أني لم أدعِ الأوهام تتسرب إلى داخلي. دائماً كنت أحبُّ أن أتمرّغ في وحل هذا العالم، وأن أنظر إليه بعينين قويتين. لذلك فإن النجاح يتراكم فوق النجاح بصورة مجّانية، وكأنه جزء عضويٌّ من وجود العالم وحركته.

اسمع يا بن أختي.! مهما تقنّع الإنسان، وموّه حاجاته بالأخيلة والأكاذيب، فإن مدار الحياة الفعلي، سيظلّ يدور حول الرغيف والفَرْج. وحقيقة الإنسان النهائية هي الفضلات، ولا شيء إلا الفضلات.

الحفيد : شعرت أني لا أستطيع أن أصغي أكثر، فشردت على إيقاع صوته الأنيق والمصقول حتى انتهى لقائي به.

(٢٥)

فصل الهذيان والأحزان

(في بيت حبيب. كل ما في البيت يوحي بالتداعي والإهمال. سناء وقد تهتّكت ملامح وجهها، وبدا عليها النحول. تجلس على الأرض وقربها المرأة، التي تبدو عليها هي الأخرى الرثاثة والإعياء)

سناء : (تختلس النظر حولها.. هامسة) هل سألتكِ؟

المرأة : عمّ؟

سناء : لم أعدْ أذكر!

المرأة : آه.. كلانا متعبة.

سناء : نعم.. إني متعبة.

المرأة : ولو أننا نستطيع أن ننام.

سناء : الألم في الرحم يمنعني من النوم.

المرأة : هذا الألم وسواس ووهم.

سناء : لا.. إنه ضعف وعجز.

المرأة : ربما.!

(يسود صمت مديد)

سناء : السؤال على رأس لساني.

المرأة : حاولي أن تتذكري.

سناء : لم أعدْ أذكر.

(يسود صمت مديد)

المرأة : هل تريدين العودة إلى البداية؟

سناء : في صباح ماطر يبلله رذاذ ناعم، صادفته عند الخياطة.

احتواني بعينين نفّاذتين يكسوهما حزن دفين. اضطربت، وشعرت أني أختنق، وأن هذا الاختناق ممتع. كم كان ذلك غريباً وجميلاً!

المرأة : نعم.. هكذا كانت البداية.

سناء : وأنتِ.. ألم تكوني شديدة الحماسة والاندفاع؟

المرأة : نعم.. وبذلت جهداً كي ينجح الأمر.

سناء : والآن.. هل تعتقدين أننا أخطأنا؟

المرأة : لا.. لم نخطئ. كانت هذه الفرصة مصيراً ينبغي أن نتبعه. لكن ما يؤلمني، هو هذا الفشل الذي انتهينا إليه.

سناء : ولماذا فشلنا؟

المرأة : أوه.. كررنا ذلك مراراً. هو لديه أشواق ورؤى عجيبة، لا تستطيع امرأة ضعيفة وعاجزة أن تفهمها، وتخوض مجاهلها.

سناء : نعم.. إني ضعيفة وعاجزة. والمصيبة أن العجز يكمن في رحمي بالذات.

المرأة : كيف فاتنا ما فعلته السنوات بنا. غاضَ جموحنا في رمال الأيام، وتسرّب فوراننا في التردّد والوسواس.

سناء : هذه هي المشكلة. نعم.. هذه هي المشكلة. إن عجزي في رحمي.

(تتوارى المرأة.. يدخل حبيب، حاملاً صينية عليها صحن من الحساء وخبز وطعام معلّب. يضع الصينية أمام سناء)

حبيب : حضّرت لك الحساء الذي تحبينه. تقريباً أنتِ لا تأكلين شيئاً. **(يناولها الملعقة)** هيّا أمسكي الملعقة، وابدئي قبل أن يبرد الحساء.

سناء : **(هامسة)** ألست جائعة؟ منظر الطعام يقلب معدتي.

حبيب : ألم تتعبي من الحديث مع نفسكِ؟

سناء : هل سمعتني أتحدث مع نفسي؟

حبيب : في الفترة الأخيرة أراكِ دائماً تتمتمين وتومئين، وكأنكِ تحاورين شخصاً يجلس قربكِ. هل غدا منفراً أن تتحدثي معي؟

سناء : لماذا تقول ذلك؟

حبيب : لأني أراكِ تلتفّين حول نفسكِ أكثر فأكثر، وتتحاشين الكلام معي. هل فتر حبّكِ إلى هذا الحد؟

سناء : **(هامسة)** أتظنين أن حبنا فتر؟ لا.. لم أحب رجلاً قبلك، ولن يكون هناك في حياتي أحدٌ بعدك.

حبيب : **(يمسك يدها، ويقبّلها بامتنان وحنان)** وإذن.. لماذا نضيّع الفرصة، ونستسلم بغباء للخيبة والفشل؟

سناء : لأني ضعيفة وعاجزة.. والعجز في رحمي يا حبيب.

حبيب : **(محاولاً أن يُطعمها بيده)** ما تحسّينه في رَحِمِك، لا يعدو شيئاً من التوتّر والوهن. هل تحسّين أحياناً بالندم؟

سناء : **(هامسة)** هل أحس بالندم؟ لا.. لست نادمة.

حبيب : إنكِ تنعشين في صدري آمالاً كادت أن تموت. سنحاول.. سنحاول من جديد. وأمامنا مروج من الغيبوبات المسكرة، والوعود المدهشة. لا يحتاج الأمر جهداً كبيراً. كما تخلعين حذاءك، اخلعي الذاكرة والأفكار والشجون، واسترخي.

سناء : ليتني أستطيع أن أسترخي.. الألم في رَحِمِي يا حبيب.

حبيب : هو ألم كاذب، فاهمليه.

سناء : لا.. هو العجز.. وهو المعاناة المؤكّدة التي لن تزول. اكتملت دورتي.. وعلي أن أرتّب ما تبقى من أيامي.

حبيب : يا ربّ.. من أين جاءتك هذه الكآبة المسمومة!؟ ماذا أستطيع أن أفعل!؟ أتريدين أن أهدم السور؟

سناء : فات الأوان.

حبيب : لم يفت الأوان بعد. يمكن أن أهدم السور، وأن أخلع النوافذ والأبواب إن كان ذلك يخفف كآبتكِ.

سناء : أنت تفكر في خلع النوافذ والأبواب، وأنا يشغلني ترتيب قبري.

حبيب : **(بعنف)** لا تذكري الموت والقبور.

سناء : **(هامسة)** هل سألتكِ؟ الآن تذكرت.. هل أجد قبراً لي في الشام؟

حبيب : ماذا تتمتمين؟ وأيُّ كلام يجري بينك وبين نفسك؟ أرجوكِ لا تسدي الحوار بيننا. **(يضمُّها إليه بحنان، فلا تبدي أية استجابة)** وصلنا العتبة يا سناء.. كِدنا نفرز حريرنا، وندخل زمناً آخر. كِدنا نصل إلى سريرة الوجود وهذا الكون.

سناء : **(هامسة)** نعم.. أريد أن أموت وأدفن في الشام. أتساعدني يا حبيب!

حبيب : اطلبي وأنا جاهز..

سناء : أريد أن أموت، وأن أدفن في الشام.

حبيب : **(يبعد عنها منقبضاً)** أأنتِ مصرة على أن نتلاحق نحو الكآبة والموت.

سناء : أعرف أن دورتي اكتملت يا حبيب. أما أنت فلماذا لا تتركني، وتبدأ الحياة من جديد.

حبيب : **(شارداً، كأنه يحدث نفسه)** كنت آمل وأكابر.. ولكن ما فائدة المكابرة! أنا أيضاً خارت قواي، وتسلّل الموت إلى داخلي.

سناء : هل تلومني؟

حبيب : لا أحد منا يستطيع أن يلوم، أو يعاتب الآخر.

سناء : **(تندفع بحركة مفاجئة نحوه. تمسك وجهه بيديها، وتقبّله)** ما كان يجب أن نفشل.

حبيب : **(بشغف ولهفة)** نعم.. ما كان يجب أن نفشل.

(يحاول حبيب أن يطيل العناق، وأن يطوّر هذه الإندفاعة الحميميّة. لكن سناء تتخلّص منه، وتعود إلى مكانها، وهي تضغط بيدها على أسفل بطنها)

سناء : إني عاجزة.. إني عاجزة.

(يعمُّ صمت مديد)

سناء : **(هامسة)** في لحظة واحدة انتفض الألم في رَحِمِي. ولم يبقَ إلا أن نرتّب الموت والقبر.

المرأة : **(هامسة من مكمنها)** هل سألتكِ؟

سناء : عمَّ؟

المرأة : لم أعد أذكر.

(تختفي الإضاءة.)

(٣٦)

فصل الملاعب والخواتم

(فرقة الأراجوز في الساحة. وهي مؤلفة كما رأينا من الأراجوز والصبية والشاب والصغير عازف الهارمونيكا. يبدأ المشهد بعزف مرح على الهارمونيكا)

الأراجوز : وتفرّج يا سلام.. وتفرّج يا سلام

وفي بيروت حكايات أكثر من الشام

نهر يجري حاملاً الغرائب والخبريات ومسالك الناس المتعثرة..

الصبية : كانت الناس تتمايل..

الأراجوز : وكانت الأيام مخمورة.

الشاب : **(وهو يشخّص الحفيد)** أردت أن أجد الدمّل، وأعرف الحقيقة.

الأراجوز : وتفرّج يا سلام..

على الشاب الغرّ، الذي يبحث عن إبرة في مزبلة.

الصبية : ما هي الحقيقة؟

الأراجوز : إبرة ضاعت في مزبلة..

الصبية : هناك روايات وأخبار عن الحقيقة.. أما الحقيقة..

الأراجوز : فإنها إبرة ضاعت في مزبلة..

(فاصل هارمونيكا)

الشاب : وجدت الدمّل دمامل، والطريق إلى الحقيقة متاهات وفجوات. فلم أجد أمامي إلا أن أتخيّل، وأركّب المشاهد. وبدلاً من الحقيقة، أعدت صياغة العائلة في رواية.

الأراجوز : ولا توجد يا ولدي إلا روايات وأخبار عن الحقيقة.

الصبية : وحين تتخمر الرواية في أفواهنا مع طول الأداء، نشعر أننا نجد التعاطف والتواصل والحقيقة.

الشاب : ألم يكن معيباً أن أحوّل عذابات العائلة ومآسيها إلى حكاية!

الأراجوز : الحكاية وحدها هي التي تخفّف العذاب، وتداوي الجروح. وحين تعلّم الإنسان كيف يحوّل مصائبه إلى حكايات، تتقاسمها الآذان والرياح والأزمان، كان يكتشف بلسماً سحرياً للجروح والآلام..

الشاب : إذن.. تلك هي الرواية.

الأراجوز : وتفرّج يا سلام..

الشاب : كنت يتيماً، حين غابت أمي يومين. عادت بعدهما ومعها جدتي.

(تجذب الصبية الولد، وتجلسه في حضنها)

الصبية : **(وهي تشخّص ليلى)** في ٢٩ أيار ١٩٤٥ وكان عمرك سنتين ونصف، استشهد أبوك شامل السيروان مع حامية الدرك، التي أبيدت، وهي تدافع عن البرلمان ضد القوات الفرنسية، التي كانت تريد السيطرة عليه. إياكَ أن تنسى هذا التاريخ. في ٢٩ أيار سنة ١٩٤٥..

الولد : لن أنساه يا أمي.

الأراجوز : في ٢٩ أيار ١٩٤٥ استشهد البطل الشاب..

الشاب : في ٢٩ أيار ١٩٤٥ غدوت يتيماً.

(فاصل هارمونيكا)

الصبية : بعد وفاته كادت اللوعة أن تقتلني، وانعقد لساني انعقاداً حسبته لن يزول حتى مماتي.

(تصوّت الصبية، وبطبقات مختلفة تصويتاً مثقلاً بالشجى والحزن.. وكأنها تبرز قدراتها الصوتية. ينضم إليها الولد

بالهارمونيكا، ويستمران حتى يوقفهما الأراجوز)

الأراجوز : وتفرّج يا سلام.. على المآسي والأحزان.

الصبية : نعم.. انعقد لساني، وكادت اللوعة أن تقتلني. ولكن حبيبي لم يتخلَّ عني. اسمع يا بنيّ.. ما أنتَ بيتيم، لأن أباكَ يرافقنا في كل شيء مرافقة المقيم.

الشاب : أوه.. لا تكثروا من البهارات، ولا تمطّوا النص بالإضافات.

الصبية : كل إنسان ولا سيما الفنان، يحب أن يضيف لمسة خاصة على الرواية.

الأراجوز : هيّا.. هيّا.. وفّري علينا التباهي والحِكَم، وتابعي.

الصبية : خلال أربعة أشهر وسبعة عشر يوماً، كان يأتيني شامل السيروان في المنام، ويقول لي..

الأراجوز : **(بصوت فخم وآمر)** لا تجعلي موتي مضاعفاً، وتذكّري أن طفلنا يحتاج عنايتكِ.

الصبية : وكان ينتظر قليلاً، ثم يدير ظهره ويمضي. وكنت أحاول أن أناديه، فلا يطاوعني لساني. فأبكي في نومي، وأستيقظ على صراخي الأبح. وبعد أربعة أشهر وسبعة عشر يوماً، رأيته وكأننا في تلك الغرفة، التي قضينا فيها ليلتنا الأولى في شتورة. كان يرتدي الملابس نفسها، وكان يفيض رقة وحناناً. ضمّني، وقال لي.. من أجل الحب وابننا انطقي.. ونطقت. ثم استيقظت، ووجدت لساني طليقاً.

(فاصل هارمونيكا)

الأراجوز : وتفرّج يا سلام..

الشاب : وأذكر أن جدّتي أصرّت أن يُمدَّ فراشها على الأرض. وخلال فترة لا أعرف كم امتدّت، تعوّدت أن أراها دائماً متمددة على ظهرها، ويداها معقودتان فوق بطنها. وكانت لا تكفُّ عن التمتمة، وقليلاً ما تأكل أو تتحدث.

الصبية : مرة قالت لي.. أشعر أن داخلي مليء بقطن أبيض ومندوف. بياض يُرهب ويُبهر. لا أستطيع أن أصلّي أو أبتهل. ابتهلي لي.. إن كنت أحتاج رأفة أو مغفرة.

الشاب : أكانت جدّتي بحاجة إلى الغفران؟

الصبية : الله أعلم..

(ضربة هارمونيكا)

الشاب : عَلامَ الغفران وممن؟

الصبية : الله أعلم..

(ضربة هارمونيكا)

الأراجوز : وتفرّج يا سلام..
في كل كلمة حكمة راجحة
ينبغي أن تدركها العقول النابهة

الشاب : لا.. لم أفكر في مسألة الغفران، ولا أعتقد أنها ضرورية.

(يغدو عزف الهارمونيكا عذباً، ويتواصل فترة بعد نهاية الحوار)

الأراجوز : وتلك هي الرواية.

الصبية : كانت الناس تتمايل..

الشاب : وكانت الأيام مخمورة..

الأراجوز : نهر يجري حاملاً الغرائب والخبريات ومسالك الناس المتعثرة..

(يدور وهو يردّد، دون أن يطغى صوته على عزف الهارمونيكا)

وتفرّج يا سلام.. وتفرّج يا سلام.

(تختفي الإضاءة.)

نهاية